نهاد حميد

المفاوضات في الاسلام

دار حطين

المفاوضات في الإسلام

نهاد فوزي حميد

رقم موافقة وزارة الإعلام: ٢٧١١١ بتاريخ ١٩٩٦/٤/٨

تصميم الغلاف: نزار فوزي حميد

تنضيد وإخراج: عبد الناصر عودة
١٩٩٨
الطبعة الأولى

بسم ا لله الرحمن الرحيم

«و قل اعملوا فسيرى ا لله عملكم ورسوله والمؤمنون»

الإهداء

إلى

سيدنا محمد رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم

إلى

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إلى

القائد الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

إلى

الملك ركن الدين الظاهر بيبرس رحمه الله

إلى

الأبطال الذين سقطوا على طريق فلسطين



الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد صنع أسلافنا لهذه الأمة مجداً عظيماً، وحققوا الانتصارات في مجال الفتوحات، ونشر الدعوة الإسلامية حتى عمَّ الإسلام بقاع الدنيا، من الصين شرقا إلى الأندلس غرباً. وقد أدرك المسلمون الأوائل أسباب النصر فانتصروا.

ولا شك أن أول أسباب انتصار المسلمين وتفوقهم، كان يكمن بإيمانهم الراسخ بالله عز وجل وتمسكهم بكتاب الله، وإقتدائهم بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكنهم أيضا أعدوا العدة العسكرية لملاقاة جيوش الأعداء، فاجتمعت لديهم قو ة العقيدة وقوة السلاح، فخاضوا المعارك جاعلين نصب أعينهم النصر أو الشهادة.

كما توفرت لهم القيادة الحكيمة لتقودهم من انتصار لآخر في السلم والحرب، فتجعل الانتصار حليفاً لهم إذا حاربوا وتجعله حليفاً لهم إذا سالموا.

في هذا البحث نلقي نظرة على المفاوضات التي جرت بين المسلمين وخصومهم، بداية من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومفاوضاته التي أجراها مع قريش وثقيف والقبائل المشركة.

ونهاية عند المفاوضات الإسلامية مع الغزاة الصليبيين، الذين اغتصبوا الأرض العربية«فلسطين وساحل بلاد الشام»، وادعوا لهم حقاً دينياً في المنطقة.

مروراً بالوثيقة العمرية التي أعطاها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأهل القدس، وكذلك فتح مصر وفتح عمورية والمفاوضات مع الروم والفرنجة.

إن بقعة الضوء هذه تمثل وجهة نظر في الأحداث السياسية التاريخية التي كانت تترافق مع الانتصارات العسكرية الإسلامية، والتي كان لها أثر عظيم في تاريخنا العربي والإسلامي.

وإننا لنرجوا الله سبحانه وتعالى، أن يجعل وجهة النظر هذه اجتهاداً، إذا أصبنا به ووافق الحق فلنا به أجران، وان أخطأنا الحقيقة فلنا أجر واحد.

والله ولي التوفيق.

نهاد فوزي حميد

دمشق ١٩٩٦/١/٢٠ م

الفصل الأول

المفاوضات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

مدخل:

بدأت الدعوة الإسلامية سراً، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على عدم خروج الدعوة إلى العلن قبل أن يحين الوقت المناسب. وما إن أذن الله ﷻ له بالجهر بالدعوة، حتى جمع الناس من حوله ودعا الناس لدين الله.

ولكن قريشاً رفضت الاستجابة لداعي الحق، واستخفت بهذه الدعوة، غير أنها سرعان ما فكرت بمحاربة الدعوة الجديدة عندما أدركت أن هذه الدعوة وجدت صداها عند الضعفاء، من العبيد والفقراء والشباب.

وقد بدأت قريش مواجهة الدين الإسلامي من خلال تعذيب الضعفاء من المسلمين وكذلك من خلال الاتصال مع رسول الله ﷺ لاحتواء دعوته.

أولاً: المفاوضات غير المباشرة

شعرت قريش أن أمر المسلمين بدأ بالنمو والتزايد في مكة، لذلك كانت تعمل على احتواء الدعوة الإسلامية والالتفاف عليها، فقد عمد زعماء قريش إلى الاتصال مع الرسول ﷺ، لإغرائه بالتخلي عن الدعوة، وقد ساقوا إليه عمه أبا طالب ليقنعه بذلك.

فأبو طالب لا يزال على دين قريش ولم يؤمن بدين الله ﷻ، وهو رجل ثقة عند قريش، وكذلك فانه هو الذي أشرف على تنشئة ابن أخيه رسول الله ﷺ ورعايته منذ طفولته،من هنا فهو ثقة أيضا عند رسول الله ﷺ.

كان أبو طالب الوسيط الدائم في المفاوضات غير المباشرة التي جرت بين المسلمين والقرشيين، بالرغم من انحيازه الظاهر إلى جانب ابن أخيه ﷺ بدافع من العصبية العائلية، حتى انه كان يرد على قريش عروضهم نيابةً عن المسلمين، عندما كان يدرك أن رسول الله ﷺ سوف يرفض هذه العروض.

وقد جرت ثلاث جولات تفاوضية غير مباشرة بين وفد من قيادة قريش وبين النبي ﷺ نيابة عن المسلمين، وقد باءت جميع هذه الجولات بالفشل أمام إصرار الرسول ﷺ على التمسك بدين الله، وعدم الرضوخ لإغراءات زعماء قريش وتهديداتهم.

الجولة الأولى

توجه وفد من زعماء قريش يضم:«عتبة بن ربيعة، شيبة بن ربيعة، أبا سفيان صخر بن حرب، العاص بن هشام، الأسود بن المطلب، أبا جهل عمرو بن هشام، الوليد بن المغيرة، نبيه ومنبه ابني الحجاج، العاص بن وائل».

التقى هذا الوفد مع أبي طالب، وهو عم رسول الله ﷺ، وهو لا يزال على دين قريش، إلا انه انتصر لابن أخيه عصبية، عرض الوفد مطالبه على أبي طالب بخصوص دعمه للمسلمين، وقد تلخصت هذه المطالب بأن يتوقف الرسول ﷺ عما يفعله من شتم وتسفيه لآلهة قريش، أو أن يعلن بنو هاشم وهم آل رسول الله ﷺ تخليهم عن رسول الله ﷺ ودعوته، وأن يخلوا بينهم وبينه.

لم ينقل أبو طالب هذه المطالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورد عليها انطلاقا من موقفه في مناصرة ابن أخيه، وعدم التخلي عنه،([1]) وبذلك فشلت الجولة الأولى من المفاوضات غير المباشرة، ولكن قريشاً واصلت محاولاتها التفاوضية وكانت الجولة الثانية.

الجولة الثانية

«ثم انهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب. إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين..

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق.
فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته.

فقال الرسول ﷺ: يا عم. والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته.

([1]) صدر الإسلام

ثم استعبر رسول ا الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل رسول ﷺ، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فـوا الله لا أسلمك لشيء أبداً». ([1])

وكان وفد قريش يضم ذات الأعضاء الذين مثلوا قريشاً في الجولة التفاوضية الأولى، ولما وقف أبو طالب إلى جانب ابن أخيه في نصرته، عمدت قريش إلى تغيير لهجتها التفاوضية مع المسلمين من خلال الوسيط التفاوضي أبي طالب، وهذا ما تجلى واضحاً في الجولة الثالثة..

الجولة الثالثة

«ثم أن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول ا الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بـ عمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب. هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، فخذه فلك عقله ونصرته، واتخذه ولداً لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعةقومك وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فقال: وا الله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا وا الله ما لا يكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي(وهو من وفد قريش) وا الله يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال أبو طالب لمطعم: وا الله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك.» ([2])

([1]) تهذيب سيرة ابن هشام

([2]) تهذيب سيرة ابن هشام

مدلولات سياسية:

نلاحظ من خلال المفاوضات غير المباشرة بين المسلمين وقريش النقاط الرئيسية التالية:

أولاً: إن هذه المفاوضات قد جرت في بداية الدعوة الإسلامية وفي مراحلها الأولى، لذلك نجد أن قريشاً استخفت بأمر الدعوة، ولم تحاول الاتصال مباشرة مع الرسولﷺ، مع أنه كان بين ظهرانيهم، ولكنهم لجؤوا إلى وسيط، يحمل إليه مطالبهم ويحمل إليهم مواقفه، وهذا الوسيط هو أبو طالب بن عبد المطلب، عم رسول اللهﷺ، وهو الذي كفله ورعاه صغيراً وكان له بمثابة الأب.

لذلك فهو يحوز على ثقة رسول الله ﷺ وكذلك فإنه رفض الإيمان بدين الله واتباع ابن أخيه وأصر على التمسك بدين قريش ، فهو يحوز على ثقة زعماء قريش.

وقد أهلته هذه الثقة ليكون لسان قريش عند ابن أخيه، ولسان المسلمين لدى قومه.

ثانياً: حاولت قريش من خلال هذه المفاوضات أن تعرض أمام المسلمين أحد خيارين لا ثالث لهما. ففي الجولات الثلاث كانت قريش تطالب رسول اللهﷺ بأن يكفّ عن تسفيه أحلامهم وشتم آلهتهم وإلا فإن الحرب هي الفيصل في هذه القضية.

وقريش تدرك أن المسلمين ضعفاء ليسوا مؤهلين لقتال أو حرب، لذلك نراها تهدد القوى القُرَشِيَّة التي ساندتهم بدافع العصبية القبلية والعشائرية، وتحديداً بني هاشم وهم أهل النبي ﷺ.

لذلك فإن وسيط المفاوضات أبو طالب رد على قريش في الجولة الأولى من دون الرجوع إلى المسلمين. ولما عادت قريش لتؤكد ذات المطالب والتهديدات في الجولة الثانية بوضوح تام.

نقل أبو طالب الرسالة إلى رسول الله ﷺ وأشفع هذه الرسالة برأيه الشخصي: «فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ». وقد لمس أبو طالب إصراراً نبوياً قوياً على التمسك بدعوة الحق لذلك فقد ردَّ مباشرةً على قريش في الجولة الثالثة بما فيه مصلحة رسول الله ﷺ،وكأن العصبية القبلية كانت أقوى عنده من الإيمان بدين قريش.

ثالثاً: لقد تجلى موقف المسلمين إصرارا وثباتاً على الدعوة لدين الله ﷺ،ولم تستطع قريش بإرغام من قوتها وجبروتها أن تثني المسلمين عن موقفهم.

حتى عندما رد أبو طالب نيابةً عن المسلمين فإن موقف أبي طالب نال إعجاب المسلمين وثقتهم، لذلك نجد أن رسول الله ﷺ قد بكى عندما نقل إليه عمُّه رسالة قريش في الجولة الثانية وفيها رأيه بأن يستجيب لهم، فظن أن عمه قد خذله وسلّمه لقريش وذلك على عكس ما يرغب ويتوقع.

أما وقد أكد له عمه بأنه لن يخذله « إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوا لله لا أسلمك لشيء أبدا».

عندئذٍ عرف رسول الله ﷺ أن ثقته بعمه ما زالت على حالها، وقد تعزّزت هذه الثقة من خلال رد أبي طالب على مطالب قريش في الجولة الثالثة والأخيرة..

ثانياً: المفاوضات المباشرة

فشلت المفاوضات غير المباشرة التي جرت بين قريش والمسلمين بوساطة أبي طالب، وكان أمر المسلمين في تعاظم وتزايد، وهذا الذي أقلق قريشاً ودفعها إلى التفاوض مباشرة مع رسول الله ﷺ.

استمرت المفاوضات المباشرة ثلاث جولات باءت جميعها بالفشل أمام إصرار النبي ﷺ على التمسك بدين الله ﷻ.

الجولة الأولى:

«حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو، جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا.

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ.

فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة([1]) في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟.

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع.

قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بماجئت به من الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً من دونك،

([1]) السطة : تعني السلطة والشرف

وإن كنت تريد به الملك ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً([1]) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع([2]) على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله يستمع منه. قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟. قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«حم✪ تنزيل من الرحمن الرحيم✪ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون✪ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه»

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت إليها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها عند قوله تعالى:«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون» فسجد.

ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟.

قال: ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

---

[1] رئياً : تسلط الجن

[2] التابع :الصاحب من الجن

قالوا: سحرك وا لله يا أبا الوليد بلسانه.قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم..»([1]).

وفي رواية أخرى أوردها فضيلة الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «فقه السيرة» أن رسول ا لله ﷺ بعد أن سمع ما لدى عتبة بن ربيعة تلى ما تيسر له من سورة فصلت:

«بسم ا لله الرحمن الرحيم»

«حم۞ تنزيل من الرحمن الرحيم۞ كتاب فصلت آياته...فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»

فقاطع عتبة رسول ا لله ﷺ وناشده أن يكف عن القراءة لما تضمنته هذه الآيات من تهديد. ثم عاد عتبة إلى أصحابه.

مدلولات سياسية:

من خلال قراءة ما جرى في الجولة التفاوضية الأولى التي جرت دون وسيط بين قريش والمسلمين نستطيع أن نقف عند النقاط الرئيسة التالية:

أولاً: إن قريشاً استشعرت خطر تزايد المسلمين، لذلك لجأت إلى التفاوض مباشرة مع رسول ا لله ﷺ، فقد كان إسلام حمزة بن عبد المطلب ومن قبله عمر بن الخطاب رضي ا لله عنهما انتصاراً معنوياً للمسلمين لما لهذين الرجلين من مكانةٍ وشرف في قريش ولما لهما من قوة وبأس شديدين فهما لم يسلما سر اً وإنما أعلنا إسلامهما جهراً تحدياً لقريش وطغيانها. وشجع ذلك الكثير من الضعفاء أن يؤمنوا بدين ا لله الجديد.

([1]) تهذيب سيرة ابن هشام

ثانياً : تألف وفد قريش المفاوض من رجل واحد فقط هو عتبة بن ربيعة، ولكن عتبة لم يكن رجلاً عادياً في قومه بل كان من زعماء قريش وسادتها، ولم تكن مبادرته التفاوضية مبادرة فردية شخصية وإنما كانت في مجلس قريش وهو بمثابة البرلمان الخاص بها وقد وافق الجميع على هذه المبادرة، وهذا يوضح لنا جدية طرح موضوع التفاوض مع المسلمين.

ثالثاً : كان عتبة ذكياً في طرحه لمقترحات قريش، فقد بدأ مخاطبة الرسولﷺ بعبارة «يا ابن أخي» وذلك ليحرك فيه مشاعره القبلية والشخصية، وقد أكد عتبة على محاولاته الالتفاف على الدعوة الإسلامية من خلال تذكير الرسولﷺ بما له من مكانة ونسب وشرف في قريش. مستبعداً بذلك الجانب العقائدي الديني من التفاوض.

غير أن رسول اللهﷺ كان يمتلك ذكاءً حاداً أكثر من عتبة وقد تناسى في رده على مقترحات قريش أية مشار، وجرَّ عتبة إلى حقيقة القضية وجوهرها، إلى العقيدة الإسلامية وذلك من خلال رده على تلك المقترحات بما جاء في كتاب اللهﷻ. ولم يتحدث بأي كلام خاص به فالقرآن الكريم هو دستور المسلمين وميثاقهم.

رابعاً : أما مقترحات قريش التي طرحها عتبة بن ربيعة على رسول اللهﷺ فهي تنتهج تكتيكاً مختلفاً عما كان خلال المفاوضات غير المباشرة، ولكنها لا تختلف من حيث الجوهر والنتيجة. فالجوهر في هذه المقترحات هو عدم الإعتراف بالدين الجديد وعدم السماح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية، أما التكتيك الجديد فهو تقديم عدة خيارات لوضعها أمام رسول اللهﷺ وليس خياراً واحداً يقابله التهديد كما كان يُعرض على أبي طالب.

وهذه الخيارات كانت تحمل هيئة المغريات، فقد أبدت قريش استعدادها لتقديم المال والسيادة والملك وكل المغريات لرسول اللهﷺ مقابل أن يتخلى عن دعوته، بل وأبدت استعدادها لمعالجة الرسولﷺ إذا كان الذي أصابه مسٌّ من الجنون.

إن هذا الإختلاف في التكتيك إنما يعكس مدى تخوف قريش من ازدياد أعداد المسلمين، وإلا لما انتقلت قريش من صيغة التهديد إلى المغريات للتخلي عن الدعوة للدين الجديد.

خامساً: أحسن رسول الله ﷺ الرد على مقترحات ومغريات قريش وقد اختار لهم من أقوال الله تعالى ما فيه إعجاز قرآني وتذكير بآيات الله وفضله وتأكيد على وحدانية الله ﷻ وتهديد للذين لا يستجيبون لداعي الحق.

«..قرآناً عربياً..».«..ومن آياته الليل والنهار..».
«..لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن..».
«..فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة..».

سادساً: عاد عتبة إلى قومه حاملاً لهم رد النبي ﷺ على مقترحاتهم وعارضا عليهم رأيه الشخصي بشأن المسلمين. وكان رأيه أن تخلي قريش بين المسلمين وسائر العرب وأن تلتزم الحياد في صراعهم معه.

وبيّن لهم المكاسب المرجوة من هذا الحياد، فإما أن ينتصر المسلمون فيكون ملكهم ملكاً لقريش بعد أن تعلن إسلامها وما أن يهزم المسلمون فتكون قريش قد كفيت هذا الأمر بغيرها.. غير أن قريشاً رفضت رأي عتبة واتهمته بأنه رجل مسحور.

الجولة الثانية:

«ثم إن نفراً من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وال جاءوا فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يعطوه من المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل أبكارهم على أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه عاداتهم، فلما رفض إلا الدعوة إلى الحق الذي بعث به.

قالوا: فتعبد آلهتنا يوماً ونعبد إلهك يوماً، فرفض ذلك أيضاً..»([1])

([1]) فقه السيرة : البوطي

مدلولات سياسية:

من خلال جولة المفاوضات الثانية نستطيع أن نلاحظ ما يلي:

أولاً : إن إصرار قريش على التفاوض مع المسلمين للوصول إلى صلح بين الطرفين يعكس التخوف الكامن لدى قادة قريش من تزايد أعداد المسلمين. وإذا كانت المفاوضات تعكس التوجه السياسي للعلاقة بين الطرفين، فإن ممارسات سادة قريش ضد المسامين وتعذيب المستضعفين منهم كانت تعكس الوجه الآخر. فقد كانت تمارس القمع والتعذيب ضد المسلمين على أرض الواقع وتحاول أن تجني ثمار ذلك من خلال المفاوضات.

إلا أن رسول الله ﷺ الذي يعمل بوحي من الله ﷻ حاول التغلب على سياسة التعذيب فقد سمح للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدين الله حيث لا يلاقي المسلمين هناك أية ضغوط. قال ﷺ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ».

فهاجر أحد عشر رجلاً وأربع نساء في الدفعة الأولى بينهم بعض كبار القادة المسلمين: عثمان بن عفان، أبو حذيفة، الزبير بن العوام، مصعب بن عمير، عبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب.
أما الدفعة الثانية فقد شملت ثمانين رجلاً من دون نساء.

ثانياً : عمدت قريش إلى رفع مستوى المفاوضات مع المسلمين عامودياً وأفقياً، فقد ضم الوفد نفراً من قريش فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وهما من قيادات الصف الأول في قريش وذلك بعد أن كان وفد قريش يضم شخصاً واحداً هو عتبة بن ربيعة.

ولعل قريشاً عمدت إلى ذلك لتُشعر رسول الله ﷺ بأهمية هذه المفاوضات وبمدى اهتمام قريش بحل هذه القضية.

ثالثاً : استخدمت قريش أساليب تكتيكية جديدة لحمل رسول الله ﷺ للخروج عن رفضه المطلق لكافة مقترحات قريش فهي التي قدمت له المغريات كما جرت العادة ولكنها ما طلبت منه التخلي عن الدعوة إلى دينه الجديد مقابل هذه المغريات بل اكتفت بأن طالبته بعدم التعرض لآلهة قريش وعاداتها وأقرت له بالدعوة إلى دينه بعيداً عن ذلك.

ثم إن قريشاً كانت تحمل في جعبتها التفاوضية اقتراحاً واقتراحاً بديلاً بحيث لو رُفض الإقتراح الأول طرحت البديل.

أما الاقتراح في هذه الجولة فهو المال والنساء مقابل عدم شتم آلهة قريش. والاقتراح البديل هو الاعتراف المتبادل بين الطرفين بحيث تَعبدُ قريش الله ﷻ وفق دين الإسلام يوماً ويعبد المسلمون آلهة قريش يوماً آخر. وبذلك يعترف كل طرف بدين الطرف الآخر ويقره عليه بل ويتناوب معه العبادات.

وكانت نتيجة الجولة الثانية من المفاوضات المباشرة الفشل كسابقاتها، ولكن قريشاً لم تيأس من حوارها العقيم واستعدَّت للجولة الثالثة.

الجولة الثالثة:

كانت الجولة الثالثة للمفاوضات المباشرة هي آخر المفاوضات بين قريش والمسلمين لذلك نراها تختلف عن جميع الجولات السابقة من حيث المضامين.

«ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة وهم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، والبختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه خاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم. فجاءهم رسول ا للهﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء. وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم.

فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا وا لله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك عليناوإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال رسول ا للهﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر ا لله حتى يحكم بيني وبينكم.

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أن ليس من الناس أحدٌ أضيق بلداً ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من ا لله وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم: ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من ا لله بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم من الدنيا. قالوا: أسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت إن ربك إن شاء فعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول ا للهﷺ: ذلك إلى ا لله إن شاء أن يفعله بكم فعل. قالوا:.. إنه قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له(الرحمن) وإنا وا لله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا وا لله لا نتركك وما بلغت منا حتى تهلك أو تهلكنا»([1])

مدلولات سياسية:

أولاً: تعتبر هذه الجولة من أهم الجولات التفاوضية وذلك لأنها عقدت لتكون الجولة الأخيرة وهذا يتضح من قول زعماء قريش: «ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه» فالهدف من هذه المفاوضات هو الوصول إلى خاتمة لهذه المفاوضات العقيمة بين الطرفين حتى تُعذر قريش فيما ستفعله ضد المسلمين.

وقد شارك في هذه المفاوضات جميع زعماء القبائل في مكة وذلك حتى يقدم كل واحد منهم ما عنده وحتى يكون قرارهم في محاربة المسلمين قراراً موحداً لا يستطيع بنو هاشم أن يقفوا بوجه أشراف مكة ونُصرة رسول ا للهﷺ.

ثانياً: تبين لنا مدى حرص الرسولﷺ على إسلام قريش لذلك نراه يسارع إلى لقاء قادة قريش في مجالسهم ظناً منه أنهم قد أعادوا النظر في موقفهم منه.

ومن الملاحظ أيضاً أن قريشاً هي التي كانت تأتي إلى مجلس رسول ا للهﷺ لتفاوضه في كل مرة بينما في هذه المرة أرسلت من يبلغه أن يأتي إلى قريش ليكلموه. لعل هذا السبب هو الذي دفع الرسولﷺ للذهاب إلى مجلس قريش طمعاً بإسلامهم.

ثالثاً: عمدت قريش إلى ذكر الانعكاسات التي أصابت مكة من جراء دعوة الإسلام ثم أكدت ما كانت تطرحه في الجولات السابقة لتبرهن أنها لا تمتلك أي جديد في مفاوضاتها وإنما تكتفي بتقديم المغريات من مال ونساء وسيادة. وكان رسول ا للهﷺ يرفض هذه المغريات ولا يقبل أي تهاون في العقيدة.

([1]) تهذيب سيرة ابن هشام

رابعاً: عندما فشلت محاولة قريش في الحصول على أي تنازل من المسلمين وقد كانت تدرك ذلك مسبقاً عندئذٍ تصرفت بسخرية وعنجهية وذلك من خلال مطالبة الرسولﷺ بالمعجزات فطلبت منه ما طلبت.

وقد أدرك رسول اللهﷺ أن ما تطلبه قريش ليس من منطق إيماني وإنما من منطق الكفر والتعجيز، والدليل على سخرية قريش أنها ما اكتفت بمعجزة واحدة لتكون حجة لهم فيؤمنوا بل طلبوا المعجزة تلو المعجزة وكأنهم يريدون أن يقولوا لرسول اللهﷺ إن ربك ليس بقادرٍ على فعل شيء مما تقول.

خامساً : وصلت هذه الجولة إلى طريق مسدود أمام إصرار النبيﷺ على رفض أي مساس بالعقيدة الإسلامية لذلك ختمت قريش هذه الجولة بالتشكيك برسالة الإسلام وذلك بادعائها أن هذه الدعوة كانت بتعليم من(الرحمن) الذي هو حسب اعتقادهم رجل باليمامة ثم إن قريشاً فضت المجلس وقد شعرت بأنها أعذرت بالمسلمين وأطلقت التهديد لهم « فقد أعذرنا إليك يا محمد وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى تهلك أو تهلكنا ».

كانت هذه الجولة هي الأخيرة بين قريش والمسلمين فما عادت قريش تبعث مندوبيها لمحاورة المسلمين بل لجأت إلى تنفيذ تهديداتها ضد المسلمين وملاحقتهم والتضييق عليهم لإجبارهم على العودة عن دينهم الجديد..

ثالثاً: الحرب القرشية ضد المسلمين:

أنهت قريش مفاوضاتها مع المسلمين بتهديد صريح بتصعيد حملات التعذيب والملاحقة وقد أدرك المسلمون هذا التهديد لكنهم تمسكوا بدينهم مُتَحَدِّين سطوة قريش. ولكن تهديدات قريش اتخذت أسلوباً تصعيدياً من خلال الحصار الاقتصادي ليس فقط على المسلمين وإنما على ذويهم أيضاً.

«فلما عجزت قريش عن قتلهﷺ أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بني هاشم وبني عبد المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلم بنوا المطلب رسول ا للهﷺ للقتل.

وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة، والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات وقيل استمر ذلك سنتين فقط وكان أول من سعى إلى نقض الصحيفة بصريح الدعوة زهير بن أمية:« أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم؟. وا لله لا أقعد حتى تشق الصحيفة القاطعة الظالمة »..([1]) ثم قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فمزقها ».([2])

([1]) تجدر الإشارة إلى أنه لما أرادت قريش نقض الوثيقة دخلت إلى جوف الكعبة فوجدت أن الأرضة (وهي حشرة صغيرة) قد أكلت الوثيقة ولم يبق منها سوى عبارة باسمك اللهم، ولعل المطعم بن عدي هو الذي انتزعها عن جدار الكعبة.

([2]) فقه السيرة

وكان هشام بن عمرو بن ربيعة هو الذي حرض نفراً من بني قصي لنقض الوثيقة وهم: زهير بن أمية، المطعم بن عدي، أبو البختري بن هشام، زمعة بن الأسود.([1])

مدلولات سياسية:

يعتبر حصار المسلمين في الشّعب المعروف باسم شِعب أبي طالب أول حرب اقتصادية حقيقية يتعرض لها المسلمون على يد قريش. ولكن أياً من المسلمين أو من أنصارهم لم يخن المسلمين، حتى إن نفراً من قريش شعروا بما يعانيه المسلمون وبنو هاشم فقاموا إلى الصحيفة ومزقوها.

ونلاحظ في هذا الحصار أن قريشاً قد أجمعت أمرها للمرة الأولى في أسلوب مقاومتها لرسول ا اللهﷺ وطبق الحصار الاقتصادي لمدة عامين أو ثلاث.

وكذلك نلمس دور العصبية القبلية في حماية المسلمين ودعمهم، فإذا كنا نرى أن المسلمين قد التزموا بدينهم انطلاقاً من إيمانهم الراسخ وهذا حق فما الذي يمكننا أن نقوله عن بني هاشم الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد والذين لم ينج أحد منهم من الحصار سوى أبو لهب الذي أصر على العداء للإسلام؟.

حتى إن الشّعب الذي حوصر فيه المسلمون عُرِفَ باسم شِعب أبي طالب ولم يعرف باسم شِعب محمدﷺ مثلاً. وذلك لأن أبا طالب هو زعيم بني هاشم.

وأخيراً فإن ما كان من أمر النفر الذين نقضوا الصحيفة يُعتبر صوتا إنسانياً خرج من بين صفوف أ عداء المسلمين.

وقد استفاد المسلمون من هذا الصوت الإنساني الذي مزّق الصحيفة وفك الحصار عن المسلمين. ولم يكن مں الحكمة والمنطق أن يرفض المسلمون فك الحصار الناجم عن هذا النفر «الذي تحرك فقط بدافع إنساني» ليس من الحكمة أن يرفض المسلمون هذا العمل

([1]) صدر الاسلام

بحجة أن جبهة الكفر واحدة وأنه ليس بعد الكفر ذنب، وأنه لا يوجد كفر تقدمي وآخر رجعي، وأن هؤلاء النفر يتساوون في الكفر مع زعماء قريش الذين أقروا الصحيفة.

ولم يرفض المسلمون هذا العمل بحجة أن القبول به يعني القبول بولاية الكفار على المسلمين. وإنما تعامل معه المسلمون انطلاقاً من إيمانهم الراسخ بالله ﷻ أولاً فهم لم يتراجعوا عن دينهم مقابل فك الحصار، وثانياً فإن مصلحة المسلمين تكمن في فك الحصار، ومصلحة الدين فوق أي اعتبار.

رابعاً: الطائف

لابد من الوقوف عند هجرة رسول ا اللهﷺ إلى الطائف فراراً بدينه من أذى قريش. «ولما نالت قريش من النبيﷺ ما وصفناه من الأذى، خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند ا اللهﷻ. ولما انتهى رسول ا اللهﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادته، فجلس إليهم ودعاهم إلى ا الله وكلمهم بما جاء من أجله فردوا عليه رداً منكراً..

فقام رسول ا اللهﷺ من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً.. ثم عاد رسول ا اللهﷺ ومعه زيد بن حارثة يريد دخول مكة.

فقال له زيد: كيف تدخل عليهم يا رسول ا الله وهم أخرجوك؟. فقال: يا زيد إن ا الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن ا الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

ثم أرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدي يخبره أنه داخل في جواره، فاستجاب مطعم لذلك. وعاد رسول ا اللهﷺ إلى مكة».([1])

مدلولات سياسية:

إن هجرة رسول ا اللهﷺ إلى الطائف محطة مهمة في السيرة النبوية حتى وإن لم تكن هذه الهجرة من ضمن المفاوضات أو الإتفاقيات التي جرت بين المسلمين وثقيف.

([1]) فقه السيرة نقلاً عن طبقات ابن سعد

فخلاصة القول إن رسول ا للهﷺ عرض الإسلام على ثقيف فرفضته وآذت نبي ا للهﷺ. وحتى نستطيع أن نفهم هذه الهجرة كحدث سياسي مهم لابد من الوقوف عند النقاط التالية:

أولاً: لماذا ثقيف؟.. لماذا اختار رسول ا لله الطائف تحديداً ليهاجر إليها ويعرض الإسلام عليها؟.

بالتأكيد لم يكن هذا الإختيار عبثياً فالرسولﷺ بصفته القائد العام للمسلمين كان يدرك أن الجزيرة العربية تضم قبائل عربية منتشرة في الصحراء الواسعة وأن بعض هذه القبائل استقرت في مدن كبيرة مثل يثرب ومكة والطائف، وكان يدرك أنه لا أمل في أن تستجيب له مكة وأنه لابد من الخروج بالدعوة خارج حدود مكة.

وكذلك كان يدرك أن يثرب حسب التفكير السياسي ليست بديلاً عن مكة، وذلك أن يثرب تضم قو تين رئيستين متصارعتين إلى جانب اليهود الذين يقومون بإشعال الفتن بين الطرفين.

إذ اً لابديل عن مكة سوى الطائف حيث تتواجد قبيلة ثقيف وهي قبيلة قوية جبارة وإنها إذا ما نصرت دين ا لله واستجابت لدعوة رسول ا للهﷺ إنها بذلك تكون قد أمدت الإسلام بقوة عظيمة، فهي القوة الوحيدة التي بإمكانها أن تقف في وجه قريش بل وبإمكانها أيضاً السيطرة على مكة. فرسول ا للهﷺ كان يسعى للبحث عن حليف قوي ليقف معه في وجه عدوه الأول قريش.

ثانياً: لماذا رسول ا للهﷺ ؟..لماذا اختار النبيﷺ أن يهاجر هو بذاته مع مستشاره الشخصي زيد بن حارثة إلى الطائف ولم يبعث بوفد من المسلمين ؟.

و لِمَ لَمْ يأمر المسلمين بالهجرة إلى الطائف لو شاؤوا ذلك، تماماً كما فتح لهم باب الهجرة إلى الحبشة قبل ذلك، أو كما حدث فيما بعد بالهجرة إلى يثرب؟.

أما الحبشة فقد قال عنهاﷺ: «فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحـد» وهـي بذلـك دار أمان للمسلمين يستطيعون أن يمارسوا فيها شعائرهم الدينية بحريةٍ تامة دون التعرض لـلأذى والعذاب.

أما يثرب فإن رسول ا للهﷺ لم يأذن للمسلمين بالهجرة إليها إلا بعد أن أوجد قاعدة إيمانية فيها من خلال الأنصار الذين أسلموا وبايعوه على أن يمنعوا المسلمين مـا يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

وبذلـك كـان بإمكـان المسـلمين أن يهـاجروا إلى يـثرب وممارسـة شـعائرهم بحمايـة المسلمين الأنصار من أهل يثرب.

أما الطائف فلم تكن دار أمان للمسلمين ولم يكن فيها قاعدة إيمانية لذلك آثر رسول ا للهﷺ أن يخوض هذه التجربة بذاته حتى لا يتحمل المسلمون أذىً فوق إيذاء قريـش لهـم، فإذا ما نجح في محاولته هذه هاجر المسلمون آمنين. وإذا ما فشل فإنه يكون قد كفى المؤمنين أذى وبطش ثقيف.

ثالثاً: عندمـا فشـل رسـول ا للهﷺ بمهمتـه في الطـائف رجـع إلى مكـة وهـو يخشـى الدخول إليها خوفاً من بطش أهلها وخاصة بعدما عرفوا أن ثقيفاً لـن تنصـر المسـلمين وهـو بذلك مهزوم لا يجد من ينصره من بطش قريش.

لذلك لم يجد رسول ا للهﷺ بُداً من أن يستجير بمطعم بن عدي وهو من سادة قريـش وهو لا يزال على شركه، وعندما أجاره مطعم دخل إلى مكة، ورضي رسول ا لله أن يدخـل معه تحت حماية قرشية ولم يدخلها فاتحاً.

خامساً: الهجرة إلى المدينة

المفاوضات مع القبائل:

إثر فشل محاولة المسلمين إقامة تحالف مع ثقيف، كان رسول الله ﷺ يتحين موسم الحج ليعرض دعوته على القبائل لعله يجد استجابةً عند إحداها، فرفضت كلها إلا بنو عامر بن صعصعة حيث كان زعيمهم فراس بن عبد الله بن سلمة يبحث عن مجد وسيادة لقومه.

فقد قال لرسول الله ﷺ:«أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك».

أدرك رسول الله ﷺ أن بني عامر بن صعصعة لن يتبعوا الإسلام إيماناً وإعتقاداً وإنما طلباً للسيادة في البلاد.

فرد عليه:« الأمر لله يضعه حيث يشاء». وقد صدق حدس رسول الله ﷺ في بني عامر عندما رد عليه زعيمهم بقوله:«أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بك ».([1])

التمهيد لبيعة العقبة الأولى:

التقى رسول الله ﷺ وفداً أوسياً من يثرب يضم زعيمهم سويد بن الصامت، وهو الملقب بالكامل نظراً لنسبه وشرفه، وقد عرض رسول الله الإسلام على وفد أوس وتلى شيئاً من القرآن الكريم.

استقبل سويد الفكرة باستحسان وقال:« إن هذا القول لحسن» ولكنه لم يعط رداً نهائياً على هذا العرض.

([1]) صدر الاسلام

وفي لقاءٍ آخر مع وفد من أوس ضم أنس بن رافع عرض الرسول الإسلام عليهم فردَّ غلام منهم اسمه إياس بن معاذ: «أي قوم، هذا وا لله خير مما جئتم له». فانتهره رئيس الوفد وضربه بحفنة من تراب وقال:« لقد جئنا لغير هذا ». وعاد وفد أوس إلى يثرب من غير أن يعطي رداً حاسماً حول الإسلام.

وفي يوم بُعاث قُتل سُويد بن الصامت وكذلك إياس بن معاذ، وكان رجالٌ من أوس قالوا عن سويد بن الصامت:« إنا لنراه قد قتل وهو مسلم».

مدلولات سياسية:

إن اللقاء مع وفد أوس في السنة العاشرة للبعثة كان تمهيداً لعقد البيعة الأولى في السنة التالية. وفي هذه الجولة التمهيدية يمكن التوقف عند نقطتين هامتين:

أولاً: لم يرفض وفد أوس الإسلام وذلك لأن أهل يثرب مهيؤون لفكرة ظهور دين جديد بسبب ما كان يشيعه اليهود حول اقتراب موعد البعاث نبي من العرب.

ثانياً: أحسَّ المسلمون أن بذرة الإيمان موجودة لدى الأوس وذلك من خلال رد سويد بن الصامت وإياس بن معاذ. وفي السنة الثانية عشرة للبعثة كانت بيعة العقبة الأولى.

بيعة العقبة الأولى:

حضر وفدٌ من الخزرج إلى مكة في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية الشريفة، وكان الوفد يضم في صفوفه: أبا أمامة أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، قطبة بن عامر، جابر بن عبد ا لله.

وكان هدف الوفد الحصول على حليف للخزرج وذلك إما للوقوف ضد الأوس في حربهم القبلية، وإما للعمل على توحيد كلمة الطرفين.

التقى الوفد مع رسول ا للهﷺ فدعاهم للإسلام، وكان ردهم:«يا قوم تعلمـون وا لله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه» وأعلن الوفد إسلامه.

ثم قال:« إنا تركنا قومنـا ولا قـوم بينهـم مـن العـداوة والشـر مـا بينهـم وعسـى إن يجمعهم ا لله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهـم الـذي أجبنـاك إليـه مـن هذا الدين، فإن يجمعهم ا لله عليه فلا رجل أعز منك».

ثـم عـاد الوفـد إلى يـثرب وعـرض الإسـلام علــى قومهــم فـأقروهم وأجـابوهم. وفي السنة الثانية عشرة للبعثة، حضر وفد من المدينـة يضـم اثني عشـر رجـلاً مـن الخـزرج والأوس وهـم : أسـعد بـن زرارة، عـوف بـن الحـارث، رافـع بـن مـالك، قطبـة بـن عـامر، عقبة بن عامر، معاذ بن الحارث، ذكوان بن عبد قيس، عبادة بن الصامت، يزيد بـن ثعلبـة، العباس بن عبادة، سعد بن علي، أبو الهيثم بن تيهان.

إضافة إلى امرأة واحدة هي عفراء بنت عبيد. واجتمع الوفد مع رسول ا للهﷺ وأقـرَّ إسلام الأوس والخزرج وعقد البيعة مع رسول ا لله.

نص البيعة الأولى:

«روى عبادة بن الصامت رضي اللّه عنــه خـبر هـذه البيعـة، فقـال: كنـا اثـني عشـر رجلاً، فقال لنا رسول ا للهﷺ: تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا با لله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتـان تفترونـه بـين أيديكـم وأرجلكـم ولا تعصونـي في معروف فمن وفى منكم فأجره على ا لله ومن أصاب مـن ذلـك شـيئاً فسـتره ا لله فـأمره إلى ا لله إنشـاء عاقبـه وإن شـاء عفـا عنـه. قـال عبـادة بـن الصـامت: فبايعنـا علـى ذلـك».([1]) وتسمى هذه البيعة بيعة النساء، أي أنها لا تتضمن البيعة على الحرب والجهاد.

([1]) فقه السيرة

ولما عاد الوفد إلى يثرب أوفد رسول ا لله معهم مصعب بن عمير ليعلمهم تعاليم الإسلام وهو بذلك أول سفير في الإسلام.

مدلولات سياسية:

إن المتطلع إلى بيعة العقبة الأولى يلاحظ ما يلي:

أولاً: أدرك رسول ا لله ﷺ أن أهل المدينة لم يرفضوا اعتناق الدين الإسلامي بالرغم من أنهم لم يلتزموا به في رحلة الحج السابقة لذلك فقد أعاد عرض الإسلام عليهم فأسلم الوفد. وهذا يؤكد حرص رسول ا لله على اغتنام أي فرصة متاحة أمامه لنشر دين ا لله.

ثانياً: إن وفد المدينة جاء إلى مكة وهو مستعدٌ لاستقبال هذه الفكرة والإيمان بها، وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال هدف الوفد من زيارة الرسول ﷺ فإما أن يجد الوفد حليفاً للخزرج في حربها الدائرة مع الأوس، وإما أن يجد وسيطا يعمل على إنهاء حالة الحرب بين الطرفين وتوحيد كلمتيهما.

ثالثاً: كان وفد الخزرج يفضل أن يجد حليفاً يعمل على إنهاء حالة الحرب وتوحيد كلمة يثرب، لذلك نراه يقترح على رسول ا لله ﷺ أن يرجع إلى المدينة فيعرض الإسلام على أهل يثرب أوسها وخزرجها.

وجدت هذه الدعوة صداها عند الأوس والخزرج فعاد في العام التالي وفد مشترك يضم زعماء القبيلتين.

رابعاً: تعتبر البيعة بمثابة اتفاق بين رسول ا لله ﷺ وبين أهل يثرب، وليست بيعة فقط على الإسلام. هذا الاتفاق جاء متضمناً مبادئ الإسلام، والتزام أهل يثرب بهذه البيعة ليس مجرد التزام لفظي، وإنما هو التزام عملي وإيمان عملي، فإلى جانب الإقرار التام بمبدأ التوحيد، التزم أهل يثرب أيضاً بأخلاقيات وتعاليم الإسلام.

خامساً: إن هذه البيعة التي لا تتجاوز عدة سطور إنما تمثل ميثاقاً واقعياً لدولة الإسلام التي نشأت فيما بعد في المدينة. إن إقرار أهل يثرب بهذا الميثاق والتزامهم به قبل هجرة الرسول الكريمﷺ إلى مدينتهم مهد الطريق واسعاً أمام بناء دولة الإسلام بعد الهجرة استناداً إلى ذات القيم الأخلاقية الواردة في نص البيعة.

بيعة العقبة الثانية

عاد السفير الأول في الإسلام مصعب بن عمير في موسم الحج في العام الثالث عشر للبعثة، عاد في وفد موسع من الأوس والخزرج إلى مكة المكرمة. وقد ضم الوفد ثلاثة وسبعين عضواً بينهم امرأتان هما: نسيبه بنت كعب المازنية، وأسماء بنت عمرو بن عدي. واعدهم رسول اللهﷺ في أوسط أيام التشريق عند العقبة، حيث تم اللقاء.

ضم وفد المسلمين: محمد رسول اللهﷺ والعباس بن عبد المطلب ، وهو لا يزال على الشرك. وضم وفد يثرب سادة الأوس والخزرج وفيهم، أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور.

تحدث العباس مخاطباً وفد يثرب:« يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزةٍ من قومه ومَنْعَةٍ في بلده.وإنه قد أبى إلا الإنحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عزةٍ ومنعةٍ من قومه وبلده ».

فردّ الأنصار على ذلك قائلين: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

ثم أخذ البراء بن معرور بيد رسول اللهﷺ قائلاً: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك ما نمنع منه أزرنا[1] فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة والسلاح ورثناها كابراً عن كابر.

---

[1] أزرنا : نساءنا

ثم قال أبو الهيثم بن التيهان مخاطباً رسول ا لله ﷺ: إنَّ بيننا وبين الرجال يقصد يهود المدينة حبالاً ونحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك ا لله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

فأجابه ﷺ: بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ثم طلب منهم أن يختاروا من بينهم اثني عشر رجلاً ليكونوا شهداء على قومهم ويبايعوه، وقد ضم وفد الأنصار عن الأوس: أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة، رفاعة بن المنذر. وعن الخزرج: أسعد بن زرارة، سعد بن الربيع، عبد ا لله بن رواحة، رافع بن مالك، البراء بن معرور، عبد ا لله بن عمرو، عبادة بن الصامت، سعد بن عبادة، المنذر بن عمرو.

خاطب رسول ا لله ﷺ وفد المدينة قائلاً: «أنتم على قومكم بما فيه كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل قومي».

وكان نهض العباس بن عبادة من الخزرج قد خاطب قومه: يا معشر الخزرج: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟. قالوا: نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهَكَت أموالكم مصيبةٌ وأشرافكم قتلٌ أسلمتموه فمن الآن فدعوه، فهو وا لله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه تهلكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه به فهو وا لله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه مصيبة الأموال والأشراف.

ثم وجهوا كلامهم إلى رسول ا لله ﷺ: فما لنا بذلك يا رسول ا لله إن نحن وفينا. قال ﷺ: الجنة.

ثم بايعوه وعادوا إلى المدينة ولما علمت قريش بأمر البيعة لحقت بوفد المدينة فأدركت منه المنذر بن عمرو وسعد بن عبادة، فاستشهد المنذر وأسر سعد.[1]

مدلولات سياسية:

تسمى بيعة العقبة الثانية بيعة الحرب وذلك لأنها تتضمن استعداد الأوس والخزرج للدفاع عن المسلمين ضد أي عدوان خارجي تتعرض له يثرب.

ومن خلال النظر في مجريات البيعة يمكن ملاحظة ما يلي:

أولاً : يلاحظ هنا إمكانية الاستفادة من المشركين والأعداء عموماً، إذا كان ذلك لا يتعارض مع مصلحة المسلمين لذلك نجد أن وفد المسلمين كان يضم عضوين فقط أحدهما العباس بن عبد المطلب وقد كان ما يزال على شركه.

وإذا كان العباس فد قام بمهمته هذه انطلاقاً من العصبية القبلية وبدافع من رابطة الدم، فإن رسول ا للهﷺ قبل بهذه المهمة انطلاقاً من الإستفادة من خبرات عمه في التفاوض.

ثانياً : استخدم العباس وهو من وفد المسلمين التكتيك السياسي للحصول على دعم قوي لرسول ا للهﷺ، ولم يكتف بعرض حقائق ما يتعرض له المسلمون من قريش، فقد بيَّن لوفد يثرب المكانة التي عليها رسول ا للهﷺ في قومه، وأن قومه سوف ينصرونه إذا ما تعرض للخطر.

وهذا البيان لم يكن مطابقاً للواقع حيث أن المسلمين تعرضوا للتعذيب والأذى من قريش حتى أضطرهم ذلك إلى الهجرة والشتات، وبالرغم من أن الهاشميين انتصروا لرسول

---

(1) فقه السيرة

ا للهﷺ في الحصار الإقتصادي إلا أنهﷺ لم يسلم من الأذى والتعذيب وحسبنا في ذلـك ما جاء في كتاب ا للهﷻ:

«تبت يدا أبي لهب وتب✪ ما أغنى عنه ماله وما كسب✪ سيصلى نـاراً ذات لهب✪ وامرأته حمالة الحطب✪في جيدها حبل من مسد».

ثم إن العباس بيَّـن للأنصـار أن رسـول ا للهﷺ قـد اختـار اللحـاق بهـم في مدينتهـم وذلك تعبيراً عن الثقة التي يشعر بهاﷺ تجاه أهل يثرب حيث ألهم صدقوا مـا عـاهدوا ا لله عليه في البيعة الأولى.

وأراد العباس استنفار همَّة أهـل يـثرب لحمايـة رسـول ا للهﷺ وهـو بـين ظهرانيهـم فجعل لهم الخيار في أن يتركوا الرسول في قومه إذا ما لمسوا في أنفسهم ضعفاً عن حمايته.

ثالثاً: نرى في رد الأنصار على حديث العباس تصميماً على متابعـة رسـول ا للهﷺ، فقد طلبوا منه أن يأخذ العهد الذي يرتضيه لنفسه ويرتضيـه لربـه. وأوضحـوا أنهـم سـوف يدافعون عن رسول ا لله وأصحابه تماماً كما يدافعون عن نسائهم، وأظهروا قوتهم وعنـادهم في القتال بحيث يطمئن المسلمون لذلك.

رابعاً: يمكن أن نلاحظ في رد الأنصـار مفارقـة سياسية تتشـابه مـع مـا حصـل بـين رسـول ا للهﷺ وبـين وفـد بـني عـامر بـن صعصعـة. حيـث أبـدى بنـو عـامر بـن صعصعـة استعدادهم للإسلام مقابل السيادة والمجد عندما قال زعيمهم: أرأيت إن نحـن تابعنـاك علـى أمرك ثم أظهرك ا لله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك .

ولأن رسول ا لله أدرك أن الدافع من وراء إسلام هـؤلاء القـوم هـو السـيادة والملـك وليس الإيمان لذلك كان ردُّه عليهم: «الأمر لله يضعه حيث يشاء ».

أما وفد يثرب الذي طرح ما يشابه ذلك من حيث الشكل عندما قال أبو الهيثم بن التيهان: إن بيننا وبين الرجال اليهود حبالاً ونحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك ا لله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.

إذا كان هذا الطرح يشابه من حيث الشكل ما طرحه بنو عامر إلا أن الدافع وراء أي من الموقفين يختلف عن الآخر، فقد طلب بنو عامر السيادة بينما أراد أهل يثرب الإطمئنان على أنفسهم إذا ما أظهر ا لله رسوله ونصره على من خالفه، وهذا أمر مشروع أقره لهم رسول ا لله ﷺ حيث كان ردُّه عليهم مختلفاً تماماً عن ردِّه على بني عامر بن صعصعة.

فقال لهم:« بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

خامساً: لم تكن موافقة الأنصار على البيعة موافقة عاطفية أو ساذجة وإنما كانت موافقة واعية تنم عن فهم عميق لمعنى المبايعة وقد تجلى ذلك في مقولة العباس بن عبادة: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس.

وقد استوثق من بيعة قومه لرسول ا لله ﷺ عندما قال: فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبةٌ وأشرافكم قتلٌ أسلمتموه فمن الآن فدعوه.

وجاء جواب قومه التزاماً بالبيعة ولو كان ثمن ذلك مصيبةٌ في الأموال وقتلٌ للأشراف: فإنا نأخذه مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

سادساً: إن انعقاد البيعة الثانية كانت البداية الحقيقية لهجرة المسلمين من دار الكفر إلى دار الإيمان. الهجرة من الصبر على البلاء إلى مقاومة الأعداء، ومن الضعف إلى الدولة والقوة والمنعة..

سادساً: ميثاق المسلمين لأهل المدينة:

كان أول عمل قام به الرسولﷺ بعد الهجرة إلى المدينة المنورة أن كتب صحيفة تعتبر بمثابة دستور ينظم حياة المدينة المنورة وتحدد أسس العلاقات بين المسلمين مع بعضهم البعض ومع يهود المدينة وكفار قريش والقبائل الأخرى.

وهذه الصحيفة هي ميثاق الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة، جاء في الصحيفة:

«بسم ا لله الرحمن الرحيم»

«هذا كتاب من النبي محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتهم (على حالهم) يتعاقلون([1]) بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين...

...«ثم عدد: بنو ساعدة، بنو الحارث، بنو جشم، بنو النجار، بنو عمرو بن عوق، بنو الأوس».

وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً([2]) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل وألا يخاف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم([3]) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

([1]) يتعاقلون : يدفعون الدية

([2]) مفرحاً : مثقلاً بالديون

([3]) دسيعة ظلم : طبيعة ظلم

ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وإن ذمة ا لله واحدة يجير عاليهم أدناهم. وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل ا لله إلا على سواء وعدل بينهم.

وإن كل غازية غزت منا يعقب بعضها بعضاً وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض([1]) بما نال دماءهم في سبيل ا لله.

و إن المؤمنين المتقين على أحسن هدىً وأقومه، وأنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على المؤمنين. وأنه من اغتبط([2]) مؤمناً على بيِّنة فإنه قودٌ به([3]) إلا أن يرضى ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه.

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن با لله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة ا لله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى ا للهﷻ وإلى محمدﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتِغ([4]) إلا نفسه وأهل بيته...

...«ثم عدد يهود: بني الحارث، بني ساعدة، بني جشم، بني الأوس، بني ثعلبة جفنة، بني الشطيبة».

([1]) أباء به : قُتل به

([2]) اغتبط : قتل دون سبب

([3]) قودٌ به : قصاصُ به

([4]) يُوتِغُ : يُهلِكُ

وإن البر دون الإثم وأن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمدﷺ وأنه لا ينحجز على نار جرح وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم.

وأن ا لله على أبر هذا، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن النصر بينهم على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى ا للهﷻ وإلى محمد رسول ا للهﷺ وأن ا لله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل الصحيفة وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن ا لله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وإنه من خرج آمن ومن قعد آمـن بالمدينـة إلا مـن ظلـم وأثِـم وأن ا لله جـارٌ لمـن بـرَّ واتقى ومحمد رسول ا لله ﷺ».([1])

مدلولات سياسية:

تعتبر الصحيفة أول دستور للدولة الإسلامية وقد راعت هذه الوثيقة السياسية كافـة الجوانب السياسية والاجتماعية في المدينة.

أولًا: تنظيم المجتمع الإسلامي في المدينة

١- اعتبر الدستور أن المسلمين أمة واحدة، مهاجريهم وأنصارهم.

٢- أكد الدستور على التكامل الإجتماعي بين المسلمين.

٣ - أقر الدستور التحالفات السابقة لكل من المهاجرين والأنصار.

٤ - أكد الدستور على حق الجوار وصيانـة الحرمـات، وذلـك مـن دون النظـر إلى ديـن أو عقيدة.

٥ - نـادى الدسـتور بـالوحدة أمـام أي خطـر خـارجي قـد تتعـرض لـه المدينـة المنـورة، وقـد حمَّـل كـل قبيلـة مسـؤولية الدفـاع عـن المدينـة مـن جـانبهم الـذي قبلهـم. كذلك دعا إلى مواجهة الفساد بيد واحدة موحدة.

٦ - منع الدستور أن ينصر أو يؤوى أي مُحدِثٍ عَمِلَ على تشويه الدين والعقيدة.

٧ - حرم الدستور على المسلمين القبول بولاية الكفار، فلا سلطان لكافر على مسلم.

٨ - أجاز الدستور للمسلمين التحالف مع يهود المدينة.

([1]) تهذيب سيرة ابن هشام

ثانياً: العلاقة مع يهود المدينة:

١ – أكد الدستور العلاقات مع اليهود وقد سمى جميع قبائلهم المتواجدة في المدينة، وجعلهم جميعاً جزءاً من المجتمع الإسلامي، يشتركون إلى جانب المسلمين في الإنفاق على تجهيز الجيش للدفاع عن المدينة.

٢ – أكد الدستور على التعاضد بين اليهود والمسلمين ضد كل من يخرج عن الدستور. وألزم اليهود بالدفاع عن المدينة إلى جانب المسلمين وتقديم النُصح لهم ما داموا فيها.

٣ – منع الدستور اليهود من مغادرة المدينة إلا بتصريح خاص من الرسولﷺ.

ثالثاً: العلاقة مع قريش:

١ – نظر الدستور إلى قريش على أنها العدو الرئيسي للمسلمين وذلك بسبب ما لقيه المسلمون من تعذيب وملاحقة في مكة.

٢ – منع الدستور المسلمين في المدينة من تقديم الأمن والجوار لأن شخص في قريش.

٣ – لا يجوز للمسلمين حماية أموالٍ لقريش.

٤ – لا يحوز أن تُجارَ قريش أو أحد ممن يناصرها.

رابعاً: المرجعية الدستورية

حدد الدستور المرجعية لأي خلاف واشتجار قد ينشأ في المدينة وذلك بالعودة إلى كتاب الله ﷻ وسنة نبيهﷺ، وتأكيداً على أهمية هذه المرجعية فقد ذكرت مرتين في الدستور:

١ – وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمدﷺ.

٢ – وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول اللهﷺ.

خامساً : الإستثناءات

دائماً كان الدستور يستثني من ظَلَمَ وأَثِمَ فإنه ليس معنيٌّ بنصر المؤمنين له وهو محروم من الأمن على نفسه وأولاده وأمواله. وقد جاء في النص « وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ».

سابعاً: الحرب الإسلامية ضد اليهود

نظمت الوثيقة حياة أهل المدينة وعلاقتهم مع اليهود المقيمين معهم. وإذا كان الوفاء بالإلتزامات والمواثيق سِمَةٌ عُرِفَ بها المسلمون فإن اليهود قد عُرفوا بسمات مختلفةٍ تماماً، لذلك نراهم ينتهزون الفرصة تلو الفرصة لينقضوا ميثاقهم مع رسول ا لله ﷺ ليكونوا هم أول ضحايا أنفسهم وغدرهم للمواثيق..

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين نقضوا ما في الصحيفة الدستور.

غزوة بني قينقاع:

جاء في دستور أهل المدينة: «وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة البر دون الإثم».

وجاء كذلك: «وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم».

فقد قدمت امرأة من المسلمين إلى سوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها. فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله (وكان يهودياً) وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فكان اليهود أول من نقض العهد فحاصرهم الرسول ﷺ حتى نزلوا على حكمه.

فتوسط لهم عبد ا لله بي أبي سلول، فقال له رسول ا لله ﷺ غاضباً: «هم لك..»[1]

---

(1)تهذيب سيرة ابن هشام .

إجلاء بني النضير:

جاء في دستور أهل المدينة: «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة».

وجاء كذلك: «وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين».

كان رسول الله ﷺ قد أجار بني عامر وعقد معهم جواراً إلا أن عمرو بن أمية الضمري وهو صحابي رأى ما حل برفاقه في بئر مؤتة على يد رجال من بني عامر وكان لا يعلم أن عهداً قد قطع مع العامريين وكان قد التقى برجلين من بني عامر فأمهلهما حتى ناما وقتلهما ظناً أنه قد حصّل ثأره من بني عامر.

ولما عاد عمرو إلى المدينة أخبر رسول الله ﷺ بأمر الرجلين، فقال رسول الله ﷺ: قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً. ثم خرج إلى بني النضير يستعينهم على دية الرجلين. فقالوا: «يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت».

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على حاله هذه فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه».

وكان الرسول ﷺ قاعداً إلى جانب جدار في بيوتهم. فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: «أنا لها».

فصعد ليلقي الصخرة كما قال. ورسول الله ﷺ في نفر في أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام راجعاً إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ للحرب والسير إلى بني النضير، وسار بالناس حتى نزل بهم فتحصنوا منه بالحصون.

وكان المنافقون ومنهم عبد ا لله بن أبي سلول، مالك بن أبي قوافل، سويد داعس قد بعثوا إلى اليهود «أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أُخْرجتُم خرجنا معكم». فانتظر اليهود النصر منهم فلم يفعلوا وقذف ا لله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول ا لله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة(السلاح) ثم ساروا إلى خيبر.([1])

غزوة بني قريظة:

جاء في دستور أهل المدينة:

«وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين»

«وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على المؤمنين».

«وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة».

« وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب».

وصل نفر من يهود ومنهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن أبي الحقيق النضري وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي وصل هذا النفر إلى مكة ودعوا قريشاً إلى حرب رسول ا لله ﷺ: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فاجتمعت قريش لذلك ونشطت.

ثم إن هؤلاء النفر من يهود جاؤوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول ا لله فاجتمعوا معهم فيه. ولما علم رسول ا لله ﷺ بزحف قريش وغطفان أمر بحفر الخندق حول المدينة،

([1]) تهذيب سيرة ابن هشام

وقد أقامت قريش بجيوشها بـ الأسيال من دومـة بـين الجـرف وزغابـة، وأقـامت غطفـان إلى جانب أحد، وأقام المسلمون معسكرهم في سلع وجعل الخندق بينه وبين الأحزاب.

ثم إن حُيي بن الأخطب جاء إلى حصن كعب بن أسد القرظـي وحرضـه علـى نقـض الوثيقة، وما زال حُيي بكعب حتى نقض الوثيقة مقابل عهدٍ من حيي بأن يبقى في حصن بني قريظة إذا ما انسحبت قريش وغطفان دون القضاء على المسلمين.

فاستوثق رسول ا لله ﷺ من غدر بني قريظة وكـان الحصـار قـد اشـتد علـى المدينـة فأرسل إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف قائدي غطفان وعرض عليهمـا الرجـوع عـن الحصار مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة ووافقت غطفان على العرض بعد مفاوضات طويلة.

ثـم إن الرسـول ﷺ استشـار سـعد بـن عبـادة وسـعد بـن معـاذ حـول هـذا الإتفـاق فاستفسرا فيما لو أن ذلك بوحي من ا لله أم خطة من عند رسول ا لله.

فأجابهم عليه السلام: بل شيء أصنعه لكم، وا لله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العـرب قـد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم.

قال سعد بن معاذ: يا رسول ا لله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شـرك بـا لله وعبـادة الأوثـان، لا نعبـد ا لله ولا نعرفـه وهـم لا يطمعـون أن يـأكلوا منهـا ثمرة إلا قِـرىً أو بيـع، أفحين أكرمنا ا لله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبـه نعطيهـم أموالنـا؟. وا لله مـا لنـا بهـذا حاجة، وا لله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم ا لله بيننا وبينهم.

قال رسول ا لله ﷺ: فأنت وذاك.

ثم إن ا لله قذف في قلوب الأحـزاب الرعـب وهبّـت ريـح اقتلعـت خيـامهم وانتهـى الحصار.

أمر رسول ا لله ﷺ مؤذناً ليؤذن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصـر إلا ببني قريظة».

استمر حصار المسلمين لحصون بني قريظة خمساً وعشرون يوماً، ثم إن زعيم بني قريظة عرض على قومه واحداً من ثلاثة أمور:

١ـ أن نتابع هذا الرجل ونصدقه فوا لله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل. قالوا لا نفارق حكم التوراة.

٢ـ هَلُمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولا نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟. فما خير العيش من بعدهم؟.

٣ـ إن الليلة ليلة سبتٍ ولعل محمداً وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا: نفسدُ سبتنا علينا.

ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم أبو لبابة بن عبد المنذر لاستشارته فوافق رسول الله على ذلك. فقال اليهود لأبي لبابة: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد. قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه. (يعني الذبح).

ثم إنهم نزلوا عند حكم رسول الله ﷺ فأراد الأوس الشفاعة لهم كما شفعت الخزرج لبني قينقاع، فقال لهم رسول الله ﷺ: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟. قالوا بلى. قال: فذلك إلى سعد بن معاذ. وحكم فيهم سعد أن يقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وأولادهم.

مدلولات سياسية:

تعتبر غزوة بني قينقاع أول حرب إسلامية يهودية، حيث أنه لم يحدث أن وقع أي اشتباك بين المسلمين واليهود قبل ذلك. فقد كان المسلمون ينظرون إلى اليهود على أنهم حلفاء لهم لأنهم أصحاب كتاب سماوي وهم أقرب إلى المسلمين من المشركين إلى أن وقع التصادم في سوق بني قينقاع.

وبالنظر إلى الحرب الإسلامية اليهودية سياسياً يمكن ملاحظة ما يلي:

أولاً : أعطت الوثيقة الدستور دوراً كبيراً لليهود في حياة المدينة، وقد نظرت إليهم على أنهم حلفاء في مواجهة القبائل المشركة. وهذا يدل على أن لليهود مكانة خاصة اقتصادية وعسكرية مهمة في المدينة حَسِبَ رسول الله ﷺ حِسابَها وعمل على تجنب شرها من خلال المساواة بين المسلمين واليهود في أسس الحياة «و أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين».

ثانياً : كشفت هذه الحرب أطباع اليهود وغدرهم ونقضهم لمواثيقهم حيث أنهم كانوا يغتنمون أية فرصة لنقض الدستور والغدر بالمسلمين على أمل أن يجدوا مقتلاً من المسلمين.

فقد نقض اليهود كل ما يخصهم في دستور المدينة فهم في المرة الأولى اعتدوا على امرأة مسلمة وقتلوا رجلاً مسلماً بحيث لم يعد لهم أي ستار يواري سوأتهم وفعلتهم هذه.

وفي المرة الثانية تخاذلوا عن تسديد ما عليهم من ديَّة للرجلين المقتولين خطأ من بني عامر بل وأكثر من ذلك فقد تآمروا على رسول الله ﷺ وحاولوا قتله.

وثالثاً فقد حرضوا القبائل المشركة على مهاجمة المدينة ولما اشتد الحصار على المسلمين عملوا على نقض الميثاق وتخاذلوا في الدفاع عن المدينة. وهذا يعني أن الغدر طبيعةً في اليهود قد تغلبت عليهم.

ثالثاً : إن حرب المسلمين ضد اليهود كانت حرباً دفاعية وليست هجومية بالرغم من أن المسلمين هم الذين يقومون بمحاصرة حصون اليهود إلا أن ذلك كان يأتي رداً على اختراقات اليهود لميثاقهم ودستور المدينة ولأنهم هم الذين بدأوا بالإعتداء على المسلمين في كل مرة.

وكذلك فإن حرب المسلمين ضد اليهود لم تكن حرباً شاملة ضد جميع اليهود فهم لم يحاصروا كل حصون اليهود منذ أول حادثة غدر يهودي على يد بني قينقاع ولم يعاقب يهود بني النضير وبني قريظة بما فعلته أيدي يهود بني قينقاع، وإنما كانوا ينزلون العقاب فقط بالطرف الذي أظهر الغدر واخترق الميثاق. مما يدل على أن المسلمين لم يحملوا أي ضغينة في صدورهم ضد اليهود.

رابعاً : كشفت لنا هذه الحرب عن حكمة سياسية لدى القائد العام للمسلمينﷺ عندما عمل على تجنيب بني غطفان الحرب مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة.

وكذلك كشف إصرار الأنصار على مواجهة الأحزاب وعدم الخضوع لابتزاز غطفان (الانسحاب مقابل ثلث ثمار المدينة) وقد نزل رسول اللهﷺ عند رأي الأنصار فقد استوثق من إصرار المسلمين على مواجهة العدوان.

خامساً : أسقطت هذه الحرب القناع عن المنافقين وبينت مدى تآمرهم على المسلمين، فإننا نجدهم قد نقضوا ميثاقهم هم أيضاً عندما تخاذلوا في الدفاع عن المدينة، وكذلك نراهم قد أجاروا اليهود بعدما خرجوا عن الدستور.

وقد أعطت هذه الحروب وجهين متضادين لتعامل أهل المدينة مع حلفاء الأمس اليهود، بينما الدفع عبد الله بن أبي سلول ليحمي بني قينقاع من حكم رسول اللهﷺ، حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بحكم الله فيهم من فوق سبع سماوات.

الفصل الثاني

صلح الحديبية

أولاً: مقدمات الصلح

وصف الله ﷻ صلح الحديبية بأنه فتح مبين، وذلك لأنه أول اتفاق يبرم بين المسلمين وقريش. حيث برز المسلمون لأول مرة كقوة سياسية موازية لقريش. وقد كانت مجريات الصلح حافلة بالمعاني السياسية، حتى إن السياسيين اليوم يتخذونه حجة ودليلاً على جواز عقد صلح مع الأعداء إذا ما اقتضت المصلحة العامة للبلاد ذلك.

رسالة شفهية:

خرج الرسول ﷺ والمسلمون في شهر ذي القعدة لأداء العمرة وليس للحرب واستنفر العرب وأهل البوادي ليخرجوا معه وهو يخشى أن تحاربه قريشاً أو تمنعه من الدخول إلى البيت الحرام، لكن أهل البوادي لم يلحقوا به فسار بمن معه من المهاجرين والأنصار والعرب، وقد ساق الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه.

وفي عسفان موضع قرب مكة التقى المسلمون مع بشر بن سفيان الكعبي فقال لرسول الله ﷺ: هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ونزلوا بوادي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذاك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في

الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟. فوا لله لا أزال أجاهد الناس على الذي بعثني به حتى يظهره ا لله أو تنفرد هذه السالفة (العنق) ويقصد الموت.

مدلولات سياسية:

نجد في هذه المقدمة بعض المدلولات السياسية التي لا بد من الوقوف عندها:

أولاً: لم يخرج المسلمون إلى قتال أو حرب وإنما لأداء العمرة وذلك في وقت لم يكن فيه أي اتفاق أو هدنة بين المسلمين وقريش، ويتبين من ذلك أن رسول ا للهﷺ قد دخل إلى مواقع الأعداء لسبب آخر غير القتال والحرب.

ثانياً: أجاز رسول ا للهﷺ الاستعانة بالعدو ضد عدو أشد خطراً، فقد استنفر رسول ا للهﷺ أهل البوادي وهم مازالوا مشركين وذلك بهدف الاستعانة بهم على قريش إذا ما حاولت المساس بالمسلمين.

ثالثاً: وضع رسول ا للهﷺ في حسابه احتمال نشوب قتال مع قريش بسبب تعنت قريش وقد ورد ذلك بصريح العبارة «و استنفر العرب وأهل البوادي ليخرجوا معه وهو يخشى أن تحاربه قريشاً أو تمنعه من الدخول إلى البيت الحرام».

إن رسول ا للهﷺ واثق بنصر ا لله للمؤمنين. غير أنه كإنسان وقائد كان لابد من الأخذ بالأسباب والاحتياط لأي غدر من قريش، وهذا الاحتياط والحذر ما كان ليضعف إيمانه با لله عز وجل.

رابعاً: إن استنفار المسلمين لأهل البادية لم يكن يعني هم الإعتماد عليهم، ولم يكن يعني أن المسلمين قد ولُّوا أمرهم لغيرهم فقد سار المسلمون دون أهل البادية عندما رفض هؤلاء اللحاق بهم، وما وهنت عزيمتهم لأن أهل البادية لم يناصروهم.

خامساً: عمل رسول ا للهﷺ على إظهار حسن النية لقريش حتى تعلم قريش أنه ما قدم لقتال وحرب وإنما لإقامة شعائر ا لله، فقد ساق الهدي وأحرم بالعمرة لتأمن قريش حربه، فإظهار حسن النية للعدو أمر تقرره المصلحة العليا للمسلمين.

سادساً: بمجرد أن علم رسول ا للهﷺ أن قريشاً خرجت لتمنعه من دخول البيت الحرام وجَّه إليها رسالةً شفهية مع بشر بن سفيان الكعبي تتضمن عرضاً بأن تخلي قريش بينه وبين سائر العرب فإما أن ينتصر فتدخل قريش في الإسلام إن شاءت أو تقاتله وقد أعدت له القوة أو أنه يهزم فتكون قريش قد كفيت أمر المسلمين بذلك.

إن هذا العرض السياسي بتحييد قريش من المعركة ترافق مع إصرار إيماني على التمسك بالعقيدة حتى يحقق ا لله النصر للمسلمين أو يهلكوا من دون ذلك.

مفاوضات:

ثم طلب رسول ا للهﷺ أن يسلك طريقاً غير طريق قريش وقد كان دليله في ذلك رجل مسلم من بني أسلم وكانت طريقاً وعراً. ولما رأت طلائع قوات قريش أن المسلمين قد التفُّوا على الطريق عادوا إلى قواتهم ليحذروهم.

وفي موضع (ثنية المرار) قرب مكة بركت ناقة رسول ا للهﷺ، فقال الناس: خلأت الناقة.([1])

قال(: «ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها».

ثم أقام المسلمون قرب بئر ماء في الوادي. وبينما هم كذلك جاء بديل بن ورقاء الخزاعي مع وفد من خزاعة فسألوا عن رسول ا لله: ما الذي جاء به؟.

([1]) خلأت : بركت وعجزت

فاخبروهم: أنه جاء زائراً للبيت وليس محارباً. ثم حملهم رسول ا للهﷺ رسالة شفهية تتضمن نفس ما حمله بشر الكعبي سابقاً.

وعاد بديل إلى قريش حيث قال لهم: يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت.

ردت قريش على هذه الرسالة بقولها: «وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوا لله لا يدخلها عنوة أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب».

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول ا للهﷺ([1]) مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً بمكة. ثم بعثت قريش مكرز بن حفص بن الأحنف لاستطلاع رأي المسلمين، فقال له رسول ا للهﷺ كما قال لبديل، فرجع مكرز إلى قريش وأخبرهم برأي المسلمين.

ثم بعثت قريش الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش.. فقالﷺ: «هذا من قوم يتألهون([2]) فابعثوا الهَدْي في وجهه ليراه».

فلما رآه الحليس عاد إلى قريش دون أن يلتقي رسول ا للهﷺ وأخبر قريشاً بما رأى، فقالت قريش: «اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك».

قال لهم الحليس: يا معشر قريش ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّعن بيت ا لله من جاء معظماً له والذي نفس الحليس بيده لتخلنَّ بين محمد وبين ماجاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد.

فقالت له قريش: كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به..

ثم بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفي زعيم بني ثقيف، حيث التقى مع رسول ا للهﷺ وجلس بين يديه.

([1]) عيبة نصحه : أمينة سره وناصحته

([2]) يتألهون : يعظمون الله

ثم قال: يامحمد أجمعت أوشاب الناس([1]) ثم جئت بهم إلى بيضتك([2]) لتفضها بهم،([3]) إنها قريش قد خرجت يعاهدون ا لله لا تدخلها عليهم عنوة وأيم ا لله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.

وكان أبو بكر الصديق يقف خلف رسول ا لله ﷺ فردَّ مستنكراً قول عروة: أنحن ننكشف عنه؟.

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول ا لله ﷺ وهو يكلمه، وكان المغيرة بن شعبة خلف رسول ا لله يحمل سيفه يَرُدُّ على تهديدات واستفزازات عروة. ثم إن رسول ا لله حمل عروة شروطاً كما جاء في رسالة بديل.

عاد عروة إلى قريش وقد رأى مدى التصاق المسلمين برسول ا لله فقال لقريش: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني وا لله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم([4]).

مدلولات سياسية:

أولاً: لا للمواجهة:

إن اختيار المسلمين طريقاً غير طريق قريش يعكس مدى إصرار قيادة المسلمين على تجنب القتال، ولم يكن يعني ذلك الخوف من المواجهة وإنما فقط تجنب المواجهة وإلا فإنه كان على المسلمين العودة إلى المدينة عندما سمعوا بخروج قريش لمواجهتهم.

([1]) أوشاب : أخلاط

([2]) بيضتك : عشيرتك

([3]) لتفضها بهم : تكسرها بهم

([4]) فروا رأيكم : انظروا رأيكم

ثانياً: نعم للصلح

أبدى رسول ا للهﷺ استعداده الصريح لعقد أي اتفاقية مع قريش إذا كان هذا الإتفاق فيه صلة رحم «لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

وهذا الإستعداد لم يكن مفاجئاً فقد سبقته مظاهر حسن النية قَصَدَ بها طمأنة قريش إلى أنه لا يريد قتالاً.

ثالثاً: الوسيط

قَبِلَ رسول ا للهﷺ مبدأ أن يكون ثمة وسطاء بين المسلمين وقريش وكان جميع الوسطاء من مشركي العرب..وفي الحقيقة فإن هؤلاء الوسطاء لم يكونوا سوى مبعوثين لقريش يدخلون معسكر المسلمين فينظرون في أحوالهم ثم يعودون إلى معسكر قريش حاملين معهم انطباعاتهم حول المسلمين وكذلك يحملون الرسائل من رسول ا لله إلى قيادة قريش، وما كان قبول رسول ا لله بهؤلاء الوسطاء والمبعوثين إلا إظهاراً لحسن النية تجاه قريش مبيناً استعداد المسلمين لعقد صلح معهم.

وبالمقابل فإن رسول ا للهﷺ كان يعتمد على خزاعة في استكشاف ما يجري في مكة وداخل صفوف قريش ومعرفة مدى تقبل قريش للصلح مع المسلمين.

ومن المعروف أن خزاعة كانت قبيلة أمينة على أسرار رسول ا لله وناصحة له مسلمها ومشركها بالرغم من أنها لم تكن قد أسلمت بعد.

رابعاً: الرسائل

إن تبادل الرسائل بين المسلمين وقريش كان أحد أوجه التفاوض بين الطرفين، فقد كانت هذه الرسائل تحمل مواقف كل طرف إلى الطرف الآخر.

فكان موقف المسلمين يتمثل في أن تخلي قريش بينهم وبين سائر العرب مقابل إعلان إنهاء حالة الحرب بين الطرفين. «ماذا لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذاك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة».

فقد حمّل رسول الله ﷺ هذه الرسالة لبشر بن سفيان الكعبي ومن ثم إلى بديل بن ورقاء الخزاعي ومن ثم إلى مكرز بن حفص بن الأحنف ومن ثم إلى عروة بن مسعود الثقفي.

أما موقف قريش فقد تجلى بوضوح برفضهم أن يدخل المسلمون إلى مكة عنوة فتتحدث العرب عن ذلك، حتى وإن كان المسلمون قد أتوها زائرين وليسوا مقاتلين. «وإن كان جاء ولا يريد قتالاً لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك عنا العرب».

خامساً: آراء مختلفة

عاد مبعوثوا قريش إلى مكة بآراء ومواقف تؤيد ضرورة السماح للمسلمين بدخول مكة وعقد صلح معهم. فقد قال بديل الخزاعي: «يا معشر قريش إنكم تعجلون محمداً، وإن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت».

وهذا حليس بن علقمة الذي لم يلتق برسول الله وإنما شاهد الهَدْيَ عاد إلى قريش وأخبرهم بأن المسلمين جاؤوا معتمرين إلى بيت الله، ولما لَمَسَ صَدّاً من قريش وممانعة لذلك قال: «ماعلى هذا حالفناكم أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له».

بل وأتبع كلامه بتهديد لقريش إذا هي منعت المسلمين من العمرة: «والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد».

وأخيراً عروة بن مسعود الثقفي الذي بيَّن لقريش مدى تماسك المسلمين: «وإني وا لله ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمدٍ في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً».

سادساً : تشكيك قريش

أوفدت قريش الحليس بن علقمة إلى معسكر المسلمين لاستطلاع رأيهم، ولكن الحليس لما وصل قرب مواقع المسلمين رأى أن المسلمين قد جاؤوا إلى مكة بهديهم زائرين معتمرين، فعاد إلى قريش من دون أن يلتقي برسول ا لله ﷺ وأخبر قريشاً بما رأى. لكن قريشاً استهزأت برأيه واتهمته بالسذاجة: «اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك».

لذلك فكر الحليس جدياً بفض التحالف القائم مع قريش إذا ما هي اعترضت طريق المسلمين.

سابعاً : المناورة

كانت قريش تفضل الصلح مع المسلمين على محاربتهم بالرغم من تعنتها وصَلَفِها وقد كانت تسعى من وراء هذا التعنت إلى تحسين مواقفها التفاوضية لفرض شروطها على المسلمين في أي صلح قادم وقد ظهر ذلك بوضوح في رد قريش على حليس بن علقمة عندما هدد بفض التحالف المشترك: «كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

ثامناً : استفزازات قريش

كان عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف أكثر رسل قريش تطاولاً على رسول ا لله ﷺ وأكثرهم استفزازاً لمشاعر المسلمين وذلك عندما حاول التشكيك بمدى إيمان المسلمين برسالتهم ومدى استعدادهم للدفاع عنها «وأيم ا لله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً» ثم كان أكثر استفزازاً عندما كان يَشُدُّ رسول ا لله من لحيته وهو يحاوره.

فما كان موقف رسول ا لله ﷺ من هذه الاستفزازات؟. لقد استوعب ﷺ هذه الإهانات والاستفزازات ولم ينجر إلى حرب أراد العدو فرضها عليهم وأصر على إظهار حسن النية وامتصاص هذه السياسة القرشية بالرغم من تحفز أبي بكر الصديق والمغيرة بن شعبة رضي اللّه عنهما للدفاع عن رسول ا لله ﷺ.

رسل المسلمين:

ثم إن رسول ا لله ﷺ بعث إلى قريش بمندوب من خزاعة وهو خراش بن أمية على جمل لرسول ا لله، فقتل القرشيون الجمل وهمُّوا بـ خراش يريدون قتله لولا أن الأحابيش منعتهم فخلُّوا سبيله. ثم إن رسول ا لله ﷺ اختار عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ليدخل مكة مفاوضاً قريش فاعتذر عمر بن الخطاب عن أداء المهمة قائلاً: «يا رسول ا لله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكني أدلُّك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان».

أوفد رسول ا لله ﷺ عثمان بن عفان ليخبرهم أن المسلمين جاؤوا زائرين للبيت وليسوا محاربين. فلما وصل عثمان بن عفان إلى مكة دخل في جوار أبان بن سعيد بن العاص حتى بلَّغ رسالة رسول ا لله ﷺ.

فقال أبو سفيان مخاطباً عثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فردَّ عثمان: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول ا لله ﷺ. واحتبست قريش عثمان فبلغ المسلمين أن عثمان قد قُتل.

ولَمّا بلغ ذلك إلى رسول ا لله ﷺ قال: لا نبرح حتى نناجز القوم.([1]) ودعا الناس إلى البيعة على الثبات في المعركة وعدم الفرار فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. ثم جاء خبر مفاده أن عثمان لا يزال حياً.

([1]) نناجز القوم: نقاتلهم

مدلولات سياسية:

أولاً : كانت قريش تسعى من خلال مبعوثيها لاستطلاع معسكر المسلمين، ثم إن رسول الله ﷺ بعث مندوبيه إلى قريش بهدف إثبات النية الحسنة. وكان المندوب الأول للمسلمين خزاعياً وصل إلى مكة بواسطة جمل لرسول الله ﷺ والهدف من ذلك البرهنة لقريش أن المسلمين جاؤوا معتمرين مسالمين.

ولكن قريشاً تعاملت برعونة وقسوة مع مندوبي المسلمين، فها هي تقتل الجمل الخاص برسول الله وهمَّت كذلك بقتل خراش الخزاعي لولا تدخل الأحابيش.

ومن المعروف أن الرسل لا يقتلون غير أن قريشاً اخترقت هذا العرف المتداول استخفافاً بالمسلمين وما منعها من ذلك إلا خشيتها من تمرد الأحابيش عليها. وكذلك فإن قريشاً أهانت المندوب الثاني لرسول الله ﷺ وهو عثمان بن عفان الذي يعتبر من القيادات الإسلامية البارزة وذلك عندما حبسته ومنعته من مغادرة مكة حتى بلغ المسلمين أن عثمان قد قتل.

إذاً فإن قريشاً لم تعامل المسلمين بالمثل، فقد استقبل المسلمون مبعوثي قريش بالرحب والسعة والصبر على استفزازاتهم. إلا أن قريشاً استقبلت مندوبي المسلمين بالإهانة والتهديد بالقتل والإعتقال، وهذا رفض صريح من قريش للتعامل مع المسلمين معاملة الند والشريك الكامل.

ثانياً : إن اختيار المبعوثين إلى قريش كان يخضع لاعتبارات سياسية أولاً وقبل كل شيء. فقد كان المبعوث الأول خزاعياً، ومن المعروف أن خزاعة لم تكن قد آمنت بالإسلام، والرسول ﷺ حاول مخاطبة قريش من خلال رجلٍ على دينها.

ولما استهانت قريش بالمبعوث الخزاعي ورأت أنه لا يعبر عن حقيقة المسلمين وقع اختيار رسول الله ﷺ على عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ليكون مندوباً له لدى قريش،

وعمر هو الشخصية الإسلامية القيادية الثالثة وكان الرسول الكريم يريد بذلك أن يثبت لقريش أنه راغب حقيقة في الصلح ولهذا فإنه أوفد أحد أهم القادة المسلمين لمفاوضتهم.

ولأن هذا الإختيار كان سياسياً وليس دينياً فإن عمر بن الخطاب اعتذر عن هذه المهمة خوفاً من بطش قريش أولاً وخوفاً من انهيار المفاوضات ثانياً، وذلك لأن عمر برر اعتذاره بأنه ليس في مكة من يجيره من بطش قريش إذا ذهب إليها.

واقترح عمر أن يكون بديله لهذه المهمة عثمان بن عفان وكذلك أوضح مبرراته لهذا الإختيار «ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان».

أما خوف عمر على انهيار المفاوضات فإنا نستنتجه من إقتراحه لاسم عثمان بن عفان تحديداً، فلو امتثل عمر لهذا الخيار لتعرض للقتل على يد قريش في مكة مما يجعل المسلمين يندفعون للانتقام لمقتله وتنهار المفاوضات بين الطرفين وتضيع فرصة السلام التي تحدث عنها رسول الله ﷺ.

أما عثمان بن عفان فهو آمن على نفسه من القتل بسبب وجود أقاربه في مكة، وكذلك فهو أقدر على مفاوضة أبناء عمومه الذين هم سادة قريش، وإننا نلاحظ أن لهجة في التفاوض مع عثمان كانت مرنة نسبياً بحيث سمحت له بالطواف في الكعبة لو شاء ذلك، كنا نلاحظ أن قريشاً لم تقتل عثمان واكتفت بحبسه في مكة، وصدق عمر بن الخطاب في اختياره ومبرراته.

ثالثاً: حاولت قريش شقَّ صف المسلمين عندما عرض زعيمها أبو سفيان على مندوب المسلمين عثمان أن يطوف بالكعبة لوحده، لكن عثمان وهو الرسول الأمين على رسالة المسلمين رفض هذا العرض «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله» فكانت محاولة قريش محاولة فاشلة وأدّها عثمان بن عفان رضي الله عنه في مهدها.

رابعاً: تعتبر بيعة الرضوان إصراراً إسلامياً إلى إبقاء خيار الحرب خياراً حياً. لم يكن خروج المسلمين إلى مكة بهدف القتال وإنما بهدف إقامة شعائر الله وهم بذلك لا يحملون معهم إلا سلاحهم الفردي. وهم في أدنى حالات الاستعداد الحربي للقتال ووضعهم دفاعي بحت وليس هجومياً.

ومع ذلك فقد تهيأ المسلمون للقتال عندما شاع خبر مقتل عثمان في مكة قال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» وأخذ البيعة من جميع المسلمين المتواجدين على الثبات في المعركة وعدم الفرار. وهذا الخيار لم يكن ردة فعل عاطفية من رسول الله ﷺ بسبب نبأ مقتل عثمان بن عفان. بل كان خياراً عسكرياً واعياً إلى جانب خيار المفاوضات.

وليس أدل على ذلك من قوله ﷺ عند البيعة: «وهذه يد عثمان» أي أنه بايع عن عثمان بن عفان على القتال. وما كان رسول الله ﷺ ليبايع باسم رجل قد قتل، فقد كان النبي ﷺ يدرك بحسه النبوي أن عثمان لم يقتل لذلك أخذ البيعة باسمه...

ثانياً: الصلح

أوفدت قريش أحد زعمائها سهيل بن عمرو وقالوا له: «إئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة». فلما رأى المسلمون سهيلاً قالوا: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». ثم جرت مفاوضات طويلة وعسيرة بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو حتى اتفقوا على الأمر ولم يبق إلا الكتابة.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: اكتب.. بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل معترضاً: لا أعرف هذا ولكن اكتب.. باسمك اللهم. فكتب.

ثم قال ﷺ: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.. فاعترض سهيل قائلاً: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ: اكتب.. هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

رفض علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه أن يمحو هذه العبارة: لا والله لا أمحوها .

فقال رسول الله ﷺ: أرني مكانها. فأراه مكانها فمحاها. ثم تابع رسول الله ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. قال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطةً ولكن ذلك في العام القادم وليس مع المسلمون إلا السيوف في قرابها. فكتب علي.

فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاء منكم لم نردُّه عليكم. اعترض المسلمون على ذلك وقال قائلهم: سبحان الله، كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً وسألوا رسول الله: أنكتب ذلك؟. قال ﷺ: نعم، من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

وجاء في النص كذلك أنهما اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه.

وقع على الوثيقة بصفة شاهد كل من: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، محمود بن مسلمة وعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم.. عن المسلمين. ومكرز بن حفص.. عن المشركين.

معارضة:

«فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟. قال أبو بكر رضي اللّه عنه: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟. قال أبو بكر رضي اللّه عنه: بلى.قال: أوليسوا بالمشركين؟. قال أبو بكر رضي اللّه عنه: بلى. قال: فعلام نُعطِ الدنية في ديننا؟. قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزهُ([1]) فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟. فقال ﷺ: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟. قال ﷺ: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟. قال: بلى. قال: أوليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟. قال: بلى. قال: فعلام نعط الدنية في ديننا؟.

قال ﷺ: أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني. قال عمر: أولست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: بلى، أفاخبرتك أنك آتيه عامك هذا؟. قال: لا. قال ﷺ: فإنك آتيه ومطوفٌ به.

([1]) الزم غرزه : التزم بموقفه

وفي طريق العودة إلى المدينة المنورة أنزل ا لله تعالى سورة الفتح، فقال عمر رضي اللّه عنه: يا رسول ا لله أوفتح هو؟. قالﷺ: نعم. فطابت نفس عمر.([1])

ولم تكن هذه المعارضة الوحيدة، بل إنَّ المعارضة الأخطر كانت مظاهر التمرد التي ظهرت على المسلمين بعد توقيع الاتفاق.

«ثم إن النبي أقبل على أصحابه فقال لهم: قوموا فانحروا ثم احلقوا كرر ذلك ثلاث مرات فوجم جميعهم وما قام منهم أحد. فدخل على زوجته أم سلمة وذكر لها ما لقي من الناس، فقالت يا رسول ا لله أتحب ذلك؟. اخرج لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتدعوا حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى لكاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم».([2])

حادثة:

بينما كان رسول ا للهﷺ يوقع الصلح مع سهيل بن عمرو وقعت حادثة مهمة ساهمت في تأجيج مشاعر المسلمين وإلهاب عواطفهم الغاضبة.

فبينما رسول ا للهﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول ا للهﷺ وقد كان أصحاب رسول ا للهﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح، لرؤيا رآها رسول ا للهﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول ا للهﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر

([1]) تهذيب سيرة ابن هشام .

([2]) فقه السيرة .

عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيلٌ أبا جندل قام إليه وضربه على وجهه وأخذ بتلبيبه.

ثم قال: « يا محمد لقد لجّت القضية([1]) بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ». قال: صدقت. فجعل يفطره من تلبيبه([2]) ويجرُّه ليرده إلى قريش.

وجعل أبا جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟. فزاد ذلك الناس غماً إلى مابهم.

فقال رسول ا للهﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن ا لله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد ا لله، وإنّا لا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: «اصبر يا أبا جندل فإنهم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب». ويُدني عمر قائم سيفه منه.

يقول عمر: «رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجلُ بأبيه». ونفذت القضية.([3])

مدلولات سياسية:

يتضح لنا من الصلح الذي عقد في الحديبية بين المسلمين وبين قريش أن الرسول الكريم كان نبياً يعمل بوحي من ا للهﷻ، غير أنه كان كذلك رجل سياسة يقدر مصلحة المسلمين ويتصرف انطلاقاً من هذه المصلحة.

([1]) لجت القضية : تم الاتفاق .

([2]) نتره من تلبيبه : جذبه من ثيابه .

([3]) تهذيب سيرة ابن هشام .

وقد سجل هذا الصلح أول تراجع في سياسة قريش تجاه المسلمين فبعد أن كانت تناصبهم العداء وتسومهم سوء العذاب وتسلب أموالهم وتطردهم من ديارهم صارت في صلح الحديبية «تأخذ لنفسها ما ترضى به »لذلك نرى زعماء قريش قد أوصوا سهيل بن عمرو مندوبهم إلى المفاوضات أن «ائت محمداً ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنَّا عامه هذا».

عرف المسلمون أن سهيلاً رجل تفاوض وصلح وليس رجل حرب وقتال وأنه من حمائم قريش وليس من صقورها «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» لذا فقد توسموا خيراً في هذا الرجل ودخلوا معه في مفاوضات طويلة توصل بعدها الطرفان إلى اتفاق. كان الأساس في هذا الاتفاق أن لا يدخل المسلمون مكة هذا العام تماماً كما أوصت قريش موفدها سهيلاً.

لم تكن لدى المسلمين رغبة في عقد مثل هذا الصلح وبالشروط التي عرضتها قريش، وقد تجلى ذلك بوضوح في المعارضة التي ظهرت بين المسلمين وعلى أعلى المستويات القيادية الإسلامية، فهذا عمر بن الخطاب الرجل الثالث في القيادة الإسلامية نراه يسارع إلى أبي بكر الصديق وإلى رسول الله ﷺ ليعلن رفضه لهذا الاتفاق عندما نظر إلى هذا الاتفاق من منظور إنساني بشري فقد وجد فيه انتقاصاً للدين وإهانة له، وما طابت نفسه لهذا الاتفاق إلا بعد نزول الوحي بالقرآن الكريم «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» بالرغم من أن رسول الله طمأنه من منظور نبوي بأن الله لن يضيع المسلمين..

وهذا علي بن أبي طالب من أهم القيادات الرئيسية لدى المسلمين وكاتب نص الاتفاق طلب منه رسول الله ﷺ أن يشطب عبارة «محمد رسول الله» ولكنه رفض أن يشطبها واعتبر ذلك تنازلاً أمام مطالب ممثل قريش. وهؤلاء عامة المسلمين أعلنوا تمردهم على رسول الله ﷺ عندنا أمرهم بإتيان شعائر الحج من حلقٍ للرأس وذبحٍ للهدي وما فعلوا ذلك حتى فعله الرسول الكريم أمامهم.

فعلوا ذلك وهم كارهون «حتى كاد بعضهم يقتل الآخر من فرط الغم».

لم يكن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه منشقاً أو مرتداً، ولم يكن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه عاصياً أو قائد تمرد، ولم تكن جموع المسلمين متنكرة لدين ا لله أو لنبوة رسول ا لله ﷺ، غير أنهم جميعاً نظروا إلى الاتفاق المبرم مع قريش من منظور بشري إنساني فأبت نفوسهم الخضوع لشروط قريش وخاصة أن المسلمين يَرَوْنَ أنفسهم أحق بالبيت الحرام من قريش.

أما رسول ا لله ﷺ فقد عزم على توقيع الاتفاق بشرط أن يكون فيه صلة رحم، وربما لو اقتصر رسول ا لله ﷺ على استخدام فكره الإنساني لما وقَّع هذا الاتفاق ولكنه كان على ثقة من نصر ا لله وتأييده، وما كان الصلح إلا فتحاً مبيناً أنزل ا لله فيه قرآناً ولما سئل عن الاتفاق وشروطه ما قال إنه اتفاق رأيت فيه مصلحة المسلمين بل قال: «أنا عبد ا لله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني» إذاً تم توقيع الاتفاق بوحي من ا لله ﷺ وليس برأيه الشخصي كإنسان.

وعندما جلس الطرفان لصياغة نص الاتفاق حضر المسلمون «عمليات التنازل» التي قدمها رسول ا لله ﷺ لوفد قريش. فهو الذي أمرهم أن يبدؤوا أعمالهم بالتسمية «بسم ا لله الرحمن الرحيم». حيث قال: «كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه بـ بسم ا لله الرحمن الرحيم أقطع»([1]) ولكنه رضي باختصار التسمية إلى عبارة «باسمك اللهم» وهي صيغة وسط بين المسلمين الذين يؤمنون بأنه لا إله إلا ا لله وهم بذلك يبدؤون باسمه وبين قريش التي تؤمن بتعدد الآلهة وترى أنه بدأت الاتفاق باسم آلهتها هي.

عندما اعترض سهيل بن عمرو على هذه العبارة مستنكراً صيغة الرحمن الرحيم «أما الرحمن فوا لله لا أعرف هذا».

([1]) الدعاء المستجاب ..رواه أبو هريرة .

هبَّ المسلمون ليعلنوا رفضهم لاقتراحه: «والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم» نزل رسول الله ﷺ عند رأي سهيل وقال لعلي بن أبي طالب اكتب، فكتب.

ثم اعترض سهيل على ما هو أكثر حساسية من ذلك عند قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو».

علم سهيل أن إقراره بأن محمداً هو رسول الله إنما هو اعتراف منه بالصفة الإعتبارية لرسول الله وهو معاملة الند للند وهذا ما كانت قريش ترفضه، فقال: «لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك». وهو بذلك يحاول تجريد المسلمين من صفتهم الإعتبارية، بل ويجردهم من النصف الآخر لعقيدتهم الدينية القائمة أساساً على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وإصرار سهيل على شطب الصفة الاعتبارية لرسول الله ﷺ كان قاسياً على المسلمين لهذا نرى علياً قد سارع إلى كتابتها ولّما أمره رسول الله بشطبها قال: «لا والله لا أمحوها» فعمد رسول الله إلى شطبها بنفسه «أرني مكانها، فأراه مكانها، فمحاها».

إن رسول الله ﷺ يعلم أن عدم ذكر صفته الاعتبارية في نص الاتفاق لا يعني انه قد فقد هذه الصفة لذلك قال لسهيل: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني».

فاغتم المسلمون لهذا التنازل ووجمت وجوههم واعتبروا هذه الصيغة اعترافاً مجانياً منهم بقريش ككيان سياسي في مكة بينما لا تتضمن أي اعتراف من قريش بالمسلمين ككيان سياسي في المدينة. ثم إن رسول الله ﷺ رضي بأن يرجع إلى المدينة بمن معه من المسلمين هذا العام دون أداء شعائر العمرة ودون أن يطوف في البيت الحرام، وهو هدفهم الرئيس من هذه الرحلة.

فقد انطلقوا في رحلتهم هذه وهم واثقون كل الثقة بأنهم سوف يدخلون البيت الحرام ويؤدون شعائر العمرة كما رأى ﷺ في منامه ورؤيا الأنبياء حق لا بد أنها ستتحقق.

وانطلاقاً من هذه الرؤيا فإن المسلمين كانوا مقتنعين بأن الدخول إلى مكة حتميةٌ قرآنية دينية لذلك كان المسلمون يفضلون التهاج الكفاح المسلح لدخول مكة والحج فيها عنوةً فرؤيا رسول ا لله حق ولا بد واقعة.

غير أن رسول ا لله ﷺ أكد لهم أنهم سوف يطوفون بالبيت الحرام ولكن ليس في هذا العام، «أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟. قال عمر: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به».

وجاء شرط قريش الجديد ليزيد من امتعاض المسلمين ويهيج خواطرهم، ويلهب قلوبهم، فقال سهيل: «لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاء منكم لم نردَّه عليكم». ظن المسلمون أن رسول ا لله سوف يرفض هذا الشرط الذي يضعف موقف المسلمين وهو شرط يعني أن يقوم المسلمون بإعادة أي رجل مسلم من قريش إلى أهله ليعذب هناك، بينما يستطيع أي رجل ارتد عن دين ا لله أن يجد ملاذاً أمناً له عند قريش.

فقال قائل المسلمين: «سبحان ا لله، كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟». ثم سألوا رسول ا لله ﷺ: «أنكتب ذلك؟» وما كان سؤالهم هذا إلا استنكاراً لذلك.

ورسول ا لله الذي لا ينطق عن الهوى والذي يعمل بوحي من ا لله ﷺ قدم للمسلمين مبررات بشرية «من ذهب منا إليهم فأبعده ا لله، ومن جاءنا منهم فسيجعل ا لله له فرجاً ومخرجاً».

ثم أقر الطرفان وضع الحرب بينهما لمدة عشر سنوات، وأتاحت الاتفاقية لكلا الطرفين إقامة تحالفات جانبية مع أي طرف آخر يرغب في ذلك فقد دخلت خزاعة في تحالف مع المسلمين ودخلت بنو بكر في تحالف مع قريش.

لكن لماذا كانت مدة الاتفاق عشر سنوات؟.

برغم تسمية هذا الاتفاق بسم صلح الحديبية إلا أن تحديد مدته إلى عشر سنوات تعني أنه لم يكن صلحاً وإنما كان هدنة مؤقتة كان القصد منها أن يأمن المسلمون قريشاً حتى يتفرغوا لبناء جبهتهم الداخلية ومواجهة الأعداء الآخرين.

وكذلك كان القصد منه أن تأمن قريش المسلمين حتى تتمكن من إقامة التحالفات مع القبائل المعادية للمسلمين لمحاصرة المدينة المنورة.

والسؤال المطروح هنا، هل كان تحديد مدة الاتفاق بوحي من ا لله ﷻ أم باجتهاد من رسول ا لله ﷺ وهو القائد العام للمسلمين؟. وأغلب الظن أن هذا التحديد كان اختياراً سياسياً اختاره القائد العام للمسلمين ﷺ ولم يكن بوحي من ا لله ﷻ، فالصلح لم يصمد لمدة عشر سنوات كما هو مقرر له إنما انقضى بعد أقل من أربع سنوات، فلو كان التحديد وحياً من ا لله ﷻ لاستمر الصلح عشر سنوات حسب الوحي المنزل من عند ا لله ﷻ بل لو كان هذا التحديد وحياً لما استطاع رسول ا لله ﷺ أن ينقض الصلح إلا بوحي آخر، ولكن هذا الوحي الآخر لم يأت ناقضاً الوحي الأول.

ولو كان هذا التحديد وحياً من ا لله ﷻ لما استطاع المسلمون في يوم من الأيام أن يعقدوا صلحاً مع خصم لهم لمدة تزيد أو تنقص عن عشر سنوات، ولكننا نجد في تاريخنا الإسلامي الكثير من الاتفاقيات المختلفة في مدتها، حتى أن رسول ا لله ﷺ صالح أهل خيبر من اليهود على السماح لهم بالعمل في أراضيهم مع احتفاظ المسلمين بحقهم في إجلائهم منها متى أرادوا ذلك من دون تحديد مدة لهذا الاتفاق وما نقض هذا الاتفاق إلا في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

وخلاصة القول أن رسول ا لله ﷺ قدّر سياسياً أنه من الممكن بناء الجبهة الداخلية والقضاء على الأعداء الداخليين والخارجيين والتفرغ بذلك لمحاربة الخصم الأكبر قريش

وتحرير مكة بعد عشر سنوات من الهدنة. ولما أتيحت الفرصة له لنقض الصلح قبل انقضاء المدة المحددة لم يتوانَ عن فعل ذلك بالرغم من عروض قريش لتجديد الصلح.

أبو جندل:

ما كانت كتب السيرة لتذكر قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو لولا أنها ساهمت في تأجيج خواطر المسلمين وإلهاب مشاعرهم عندما وقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا الصحابي الجليل الذي جاء مصفداً بالقيود يستنجد بالمسلمين بعد الذي أصابه من العذاب والظلم، ولم يستطع أحد من المسلمين نصرته بسبب الصلح الذي وقعه رسول ا لله مع قريش، وأخذ المسلمون ينظرون إليه بأسف وحسرة لعجزهم عن الانتصار له بعد أن قيدتهم الاتفاقية..

قصة أبي جندل لم تكن الحادثة الفريدة في هذا المضمار ولكن المميز في هذه القصة أنها جاءت في سياق الاتفاق حيث أن رسول ا لله رضي بما اشترطه ممثل قريش سهيل بن عمرو من التزام بإعادة أي مسلم يأتي من قريش بينما لا تلتزم قريش بإعادة من يرتد عن دين ا لله قاصداً قريش.

رأى المسلمون في هذا الشرط إهانة لهم، إذ كيف يقوم المسلمون بإعادة من المسلمين إلى قريش لتعذبهم بينما لا يستطيع المسلمون إقامة حدود ا لله على من ارتد عن دين ا لله؟. كيف يقبل رسول ا لله بشرط كهذا؟. شعر المسلمون بكآبة عظيمة لما تضمنه هذا الشرط ثم جاءت حادثة أبي جندل لتؤكد مخاوف المسلمين من مضمون هذا الشرط.

في الحقيقة فإن هذه الحادثة كانت امتحاناً كبيراً للمسلمين نجحوا فيه بفضل ا لله عز وجل أولاً ثم بفضل إيمانهم الكبير بعد ذلك، فلا أبو جندل ارتد عن دين ا لله لَمّا خذله الاتفاق ولا المسلمون ارتدوا عن دين ا لله أو ضعف إيمانهم لما أحسوا الخذلان بسبب الاتفاق،

بل زادهم إصراراً على التمسك بدينهم الذي هو دين الحق والتزموا بالعهد الذي قطعه رسول ا لله ﷺ لقريش حتى أذن ا لله بالفتح المبين..

التنازل ليس تفريطاً بالحقوق:

استجاب الرسول الكريم ﷺ لإملاءات سهيل بن عمرو عند صياغة الاتفاق. وهذا ما نسميه تكتيكاً سياسياً منه ﷺ بهدف توقيع هذا الاتفاق.

فقد كان رسول ا لله يدرك أن هذا الصلح ليس إلا خطوة نحو تحقيق الأهداف الإسلامية. ومهما كانت الشروط القرشية صعبة فإن ا لله ﷻ قد وعد عباده المؤمنين بالنصر وهذا هو مبعث الأمل في نفس رسول ا لله ﷺ، وهذا هو الذي ثبت المؤمنين على إيمانهم عند توقيع الاتفاق.

ولم تكن استجابة المسلمين لشروط قريش تفريطاً بحقهم أو تنازلاً عن الحق الذي جاءهم من ا لله ﷻ وإنما كانت في سبيل إقامة دولة الإسلام القوية وأمن مكر القرشيين، فقد استجاب ﷺ لأصول المخاطبة القرشية وتنازل عن أصول المخاطبة الإسلامية ولم تبدأ الوثيقة بعبارة «بسم ا لله الرحمن الرحيم» وهي العبارة التي يبدأ المسلمون كل أعمالهم بها وإنما بدأت بعبارة «باسمك اللهم» وهذه العبارة التي تعتبر بمثابة حل وسط أسقطت من لفظها عبارة «الرحمن الرحيم» بل واعترض سهيل على ذكر هذه العبارة.

إن هذه الاستجابة الإسلامية لا تعني أن المسلمين ما عادوا مؤمنين بأن ا لله هو الرحمن الرحيم، بل ظلوا على إيمانهم بها بالرغم من هذه الوثيقة المنتقصة والتي وقعها رسول ا لله ﷺ.

ثم إنه ﷺ استجاب لطلب سهيل بن عمرو بشطب عبارة «محمد رسول ا لله» وقام هو بشطبها بيده الكريمة. وعبارة رسول ا لله إنما هي إبراز للصفة التمثيلية التي يوقع رسول ا لله بموجبها الاتفاق.

ولعل هذه العبارة ليست عبارة لفظية وحسب وإنما تدخل في جوهر العقيدة لأن أول لبنة في بناء الدين الإسلامي وأول قواعد العقيدة الإسلامية هي شهادة أن لا إله إلا ا لله وأن محمد رسول ا لله.

والاستجابة النبوية لإغفال هذه الصفة في الاتفاق هي إغفال لنصف العقيدة الإسلامية، وإغفال للصفة الاعتبارية والتمثيلية للرسولﷺ.

فهل يعني ذلك أن رسول ا لله لم يعد رسول ا لله؟. وهل يعني ذلك أن المسلمين تخلوا عن إيمانهم بأن محمداً هو رسول ا لله؟. إن رسول ا لله وإن أغفل صفته هذه في الاتفاق إلا أنه قال: «وا لله إني لرسول ا لله وإن كذبتموني».

ثم إن رسول ا للهﷺ استجاب لطلب قريش بالعودة إلى المدينة من دون أداء العمرة في ذلك العام على أن يعود إليها مع أصحابه في العام القادم بالرغم من أن المسلمين ما جاؤوا إلى مكة إلا وهم واثقين كل الثقة بأنهم سيدخلون مكة وسوف يطوفون ويؤدون مناسك العمرة. كيف لا تكون لديهم مثل هذه الثقة وقد أخبرهم بذلك رسول ا لله؟. لكن هذه المرحلية في أداء مناسك العمرة، وهذا التأجيل المفروض على المسلمين لم يفقد المسلمين حقهم بالعمرة والطواف في مكة ولم ينظروا إلى الاتفاق إلى أنه أعطى لقريش ما ليس لها.

ثم استجاب رسول ا لله لمطلب قريش بتسليمها أي رجلٍ يلحق بالمدينة مسلماً، ثم لا يكون له الحقﷺ في المطالبة بمن يرتد عن دين ا لله ويلحق بقريش.

فهل كانت هذه التنازلات تفريطاً بالحقوق؟. بالتأكيد لا. لأن هذه التنازلات حصلت مقابل إقرار اتفاق مع قريش، ولكنها بالتأكيد لا تفقد المسلمين حقهم بإيمانهم بأن ا لله هو الرحمن الرحيم وأن محمداً هو رسول ا لله وأن الكعبة المشرفة هي قبلة المسلمين.. بالتأكيد التنازل ليس تفريطاً، التنازل لا يفقد صاحب الحق حقه.

إختراقات في صلح الحديبية:

في الحقيقة فإن صلح الحديبية قد شهد اختراقاً مهماً قبل أن يتم نقض الصلح، وهذا الاختراق يتعلق بالنساء المسلمات المهاجرات من مكة إلى مدينة رسول ا لله فراراً بدينهن.

فقد هاجرت أم كلثوم بنت أبي معيط من مكة إلى المدينة في مدة الحديبية وما ردها رسول ا لله ﷺ إلى قريش.

قالت أم كلثوم رضي اللّه عنها: «كنت أخرج إلى بادية لنا فيها أهلي ولا ينكرون ذهابي البادية حتى أجمعت المسير فخرجت يوماً من مكة وكأني أريد البادية، فلما رجع من معي، إذا رجل من خزاعة، قال: أين تريدين؟. قلت: ما مسألتك؟ من أنت؟. قال: رجل من خزاعة.

فلما ذكر خزاعة اطمأننت إليه لدخول خزاعة في عهد رسول ا لله ﷺ وعقده، فقلت: إني إمرأة من قريش وإني أريد اللحوق برسول ا لله ﷺ ولا علم لي بالطريق، فقال: أنا صاحبك حتى أوردك المدينة.. قدمنا المدينة فدخلت على أم سليم وقلت: أخاف أن أرد كما رُدَّ أبو جندل وأبو بصيرة وحال الرجال ليس كحال النساء..

فدخل رسول ا لله ﷺ على أم سليم فأخبرته فرحّب وسهّل، فقلت إني قد فررت بديني فامنعني ولا تردني لهم يفتنوني ويعذبوني ولا صبر لي على العذاب، إنما أنا امرأة وضعف النساء إلى ما تعرف، قد رأيتك رددت رجلين حتى امتنع أحدهما، فقال: «إن ا لله ﷻ قد نقض العهد في النساء». فكان يرد الرجال ولا يرد النساء.

ولما قدم أخواها الوليد وعمارة لإعادتها إلى مكة قالا: أوف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه، قال: قد نقض ا لله ذلك. فانصرفا».[1]

([1]) أحكام النساء للإمام ابن الجوزي تحقيق أحمد شوحان دمشق ١٩٩١

وكان ا لله تعالى قد أنزل قرآناً ينقض عهد قريش في النساء:

«يا أيها الذين أمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهـاجرات فـامتحنوهن✪ اللـه أعلـم بإيمـانهن فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار✪ لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهن».

صدق ا لله العظيم.

مدلولات سياسية:

نص الاتفاق الموقع بين المسلمين وبين قريش على إعادة أي مسلم جـاء مـن مكـة إلى المدينة، ولكن هذا الاتفاق لم يذكر تحديداً لجنس المسلم الذي يجب إعادته إلى قريـش ذكـراً كان أم أنثى. ولأن الاتفاق جاء عاماً من غير تحديد لهذه القضية فقد كان المسلمون ملزمون بإعادة من يأتيهم من قريش فاراً بدينه ذكراً كان أم أنثى.

لذلك فإنه عندما جاءت النساء المسلمات مهـاجرات مـن مكـة هاربـات بدينهـن إلى ا لله ورسوله وقف رسول ا لله حائراً أمام هذا الامتحان، فهو من حيث المبـدأ يريـد أن يفـي بالتزاماته واتفاقياته مع قريش، وهو من حيث النظرية يرفـض تسـليم النسـاء المسـلمات إلى قريش، فما استطاع أن يحكم بهذا الأمر باجتهاده الشخصي حتى نزل الوحي مـن عنـد ا لله ﷻ «إن ا لله ﷻ قد نقض العهد في النساء».

والتزم رسول ا لله بأمر ا لله «فلا ترجعوهن إلى الكفار» ورد لقريش عهدها فيما يتعلق بهـذا الأمـر ولـما جـاءت قريـش تسـترجع أم كلثـوم رضـي ا لله عنهـا إلى مكـة قـال لموفدها:«قد نقض ا لله ذلك».

وذلك لأن ا لله ﷻ وهو الذي أوحى بعقد هذا الاتفاق يأبى أن يلحق الـذل والهوان بالمسلمين.

بالرغم من أن هذه الحادثة تمثل اختراقاً واضحاً للاتفاق إلا أن قريشاً لم تجعل منه سبباً لنقض الاتفاق بل ربما اعتبرته بمثابة استثناء منه وليس اختراقاً له.

اختراق آخر «سيف البحر»:

«لقد جاء إلى النبيﷺ بعد ذهابه إلى المدينة رجل آخر قد أسلم من قريش اسمه أبو بصيرة فأرسلوا في طلبه رجلين من المشركين ليستردوه، فسلمه رسول ا اللهﷺ إليهما.

فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فغافل أبو بصيرة أحد حراسه وأخذ منه سيفه فقتله ففرّ الآخر، ثم عاد أبو بصيرة إلى رسول ا اللهﷺ فقال: «يا نبي ا الله قد وا الله أوفى ا الله ذمتك، قد رددتني إليهم فأنجاني ا الله منهم».

ثم إنه خرج حتى أتى سيف البحر، وتفلت أبو جندل فلحق به هناك وأصبح ذلك المكان مثابةً للمسلمين من أهل مكة فلا يخرج من قريش رجل مسلم إلا لحق بأبي بصيرة وإخوانه فما كانوا يسمعون بعير لقريش خرجت من الشام إلا اعترضوا لها فقتلوا المشركين وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريش إلى رسول ا اللهﷺ تناشده ا الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه فجاؤوا إلى المدينة».([1])

مدلولات سياسية:

جاء الاختراق الثاني لصلح الحديبية بناءً على طلبٍ من قريش ولما فيه مصلحة المسلمين والقرشيين معاً..

فقد اشترطت قريش إعادة أي مسلمٍ من قريش إلى مكة ورأى المسلمون في ذلك إهانة لهم حتى أنَّ عمر بن الخطاب وهو الرجل الثالث في القيادة الإسلامية اعتبره دنيَّة ونقيصة، لكن ا الله متم نوره ولو كره الكافرون فقد جعل هذا الشرط وبالاً على قريش.

([1]) فقه السيرة : د . محمد سعيد رمضان البوطي .

وهذا رسول الله ﷺ يلتزم بشرط الاتفاق الصعب ويرفض إغاثة أبي جندل الذي جاء إلى المسلمين وهم لم يغادروا مكة بعد. ثم إنه رفض استقبال أبي بصيرة في المدينة المنورة عندما جاءها مسلماً، بل وقام أيضاً بتسليمه إلى قريش تنفيذاً لهذا الاتفاق، ولا شك أن المسلمين وجدوا في أنفسهم شيئاً من هذا التصرف إلا أنهم ما كانوا ليخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

«يمكرون ويمكر الله» فهذا أبو بصيرة يغافل حارسيه فيقتل أحدهما ويهرب الآخر فيصبح بذلك حراً لا سلطة لقريش عليه بعد أن هرب من حراسها، ولا هو ملزم باتفاق عدم الاعتداء على قريش لأنه هاجر إلى المدينة ورفض رسول الله استقباله.

وبذلك فقد التزم رسول الله ﷺ ومسلموا المدينة بالاتفاق فلم يعد لهم سلطان على القوافل التجارية لقريش، بينما تجمع أبو بصيرة وأبو جندل وكل من هاجر بدينه من مكة بعد الصلح تجمعوا جميعاً في «سيف البحر» واتخذوها مقراً لهجماتهم الفدائية على قوافل قريش.

فانقلب شرط قريش عليها وأصبح وبالاً ومصيبة لها. وقريش أوقعت نفسها في حيرة بهذا الشرط، فهي غير قادرة على القضاء على هؤلاء المسلمين المتمردين وهي كذلك لا تستطيع إلزام الرسول ﷺ بأن يأمر هؤلاء المسلمين بالكف عن مهاجمة قريش لأنهم وفقاً للاتفاق لا سلطة قانونية له عليهم.

وأصبحت قريش بفضل هذا الشرط أمام عدوين أحدهما ملتزم بالاتفاق ويعمل على بناء جبهته الداخلية بأمان وآخر غير ملتزم بالاتفاق ويعمل على محاربة قريش وملاحقة قوافلها..

لذلك نجد أن قريشاً سارعت إلى رسول الله ﷺ وناشدته بالله والرحم أن يقبل هؤلاء المسلمين في المدينة ويخترق شرط الصلح الموقع بينهما.

ناشدته با لله قناعة منها أنها تخاطبه من منطقه الإيماني والعقائدي حتى ولو لم تكن هي مؤمنة بهذا المنطق وهذه العقيدة وذلك لأنها تعلم أنه إذا سُئل با لله فسوف يلبي ما لم تكن معصية.

وناشدته الرحم مخاطبة عواطفه وعصبيته القبلية والأسرية والتي على أساسها رضي بعقد الاتفاق مع قريش صلة الرحم بالرغم من أن قريش لم ترعَ ذلك عندما كانت تحارب المسلمين ولأن رسول ا لله لم يكن يسعى لإراقة الدم ولو كانت دماء مشركين فإنه استجاب لمطلب قريش ورضي باستقبال هؤلاء المسلمين في المدينة، وبذلك يعتبر هذا البند من الاتفاق لاغياً بموافقة الطرفين.

لا نستطيع أن نرى بهذا الاختراق نقضاً للاتفاق وإنما كان تعديلاً له تم بموافقة الطرفين معاً وبما يحقق مصلحتهما معاً. يمر الاختراق الثاني، ويظل هذا الاتفاق صامداً، ولكن إلى حين..

ثالثاً: نقض صلح الحديبية

كان الثأر قد استحكم بين بكر وخزاعة قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام وتشاغل الناس به حتى كان صلح الحديبية الذي أجاز لطرفي الصراع عقد التحالفات مع القبائل الأخرى. فدخلت خزاعة في حلف رسول ا لله ﷺ بينما دخلت بنو بكر في حلف قريش..

وفي مدة الصلح أرادت بنو بكر أن يصيبوا ثأرهم من خزاعة، فخرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر حتى بيَّت خزاعة وهم على الوتير (ماء لهم اسمه الوتير) فأصابوا منهم رجلاً واقتتلوا ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قاتل بالليل مستخفياً.

لما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منها ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول ا لله ﷺ من العهد والميثاق خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول ا لله ﷺ فقال:

يارب إني ناشد محمداً — حلف أبينا وأبيه التليدا

فانصر هداك ا لله نصراً أعتداً — وادع عباد ا لله يأتوا مددا

فقال رسول ا لله ﷺ: «نُصرت ياعمرو بن سالم».

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول ا لله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول ا لله ﷺ فقال: «ما أنا بفاعل».

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: «أأنا أشفع لكم إلى رسول ا لله ﷺ؟.فو ا لله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به[1]».

---

(1) الذر : صغار النمل .

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ، فقال: «يا علي إنك أمسُّ القوم بي رحماً وإني قد جئت في حاجةٍ فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً فاشفع لي إلى رسول الله».

فقال علي: «ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه». فالتفت إلى فاطمة فقال: «يا ابنة محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا (وكان الحسن بين يديها) فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟».

قالت: «وما يجير أحد على رسول الله ﷺ». قال:«يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني».

قال علي: «والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك». قال: «أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟». قال: «لا والله ما أظن ولكنني لا أجد لك غير ذلك..».

ثم عاد إلى قريش. وأمر رسول الله ﷺ بالجهاد وأعلم الناس أنه سائر إلى مكة. وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

فتجهز الناس، ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين..

قال العباس بن عبد المطلب: «والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر».

ثم خرج لعله يجد من يحمل خبراً لقريش بمكان المسلمين ليأتوه مستأمنين حتى التقى مع أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وقال لأبي سفيان: «فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه».

ولما وصلا إلى رسول ا لله ﷺ قال للعباس: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به».

قال العباس: فلما أصبحت غدوت إلى رسول ا لله ﷺ فلما رآه رسول ا لله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا ا لله؟. قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك وا لله لقد ظننت أن لو كان مع ا لله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد».
قال رسول ا لله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول ا لله؟..».

قال: «بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك أما هذه وا لله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً».

فقال له العباس: «ويحك أسلم واشهد أنه لا إله إلا ا لله وأن محمد رسول ا لله قبل أن تُضرب عنقك». فشهد شهادة الحق فأسلم. قال العباس: «قلت يا رسول ا لله إن أبا سفيان رَجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

قال: «نعم، من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول ا لله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق السوادي حتى تمر به جنود ا لله فيراها..». ثم قال العباس: «النجاء إلى قومك».

حتى إذا جاءهم أبو سفيان صرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وكان رسول ا لله ﷺ قد عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم. إلا إنه قد عهد في نفرٍ سماهم أَمَرَ بقتلهم وإن وجدوا تحت ستار الكعبة.

ثم إن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟».قالوا: «خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم». قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».(1)

المدلولات السياسية:

أولاً: إن نقض الصلح لم يتم من قِبل قريش أو المسلمين وإنما تمّ بين بني بكر حلفاء قريش وخزاعة حلفاء المسلمين. حتى المساعدات التي قدمتها قريش لحلفائها كانت مستخفية بليل ولم تكن مساعدات علنية مما يعكس مخاوف قريش من نقض الصلح مع المسلمين. ولكن الصلح أصبح منتهياً حتى ولو لم تكن قريش طرفاً رئيساً في نقضه.

ثانياً: سارع أبو سفيان زعيم قريش إلى تجديد الميثاق مع المسلمين وتطويق الأزمة في الحرم، إن هذا السعي القرشي لتجديد الصلح يعني أن الموازين العسكرية التي كانت لصالح قريش عندما عقد الصلح انقلبت تماماً لصالح المسلمين عند نقض الصلح.

ولو أن هذه الموازين ظلت مستقرة لصالح قريش لما سارع القرشيون إلى احتواء الأزمة، وانقلاب موازين القوى في المنطقة لصالح المسلمين يعني أن صلح الحديبية كان فتحاً مبيناً كما وصفه الله ﷻ ويعني أن ثمة عناية إلهية كانت ترعى الصلح وتريد له أن يتم كما كان بالرغم من الشروط المجحفة التي فرضها القرشيون على المسلمين.

ثالثاً: ولكن كيف استقبل المسلمون نقض الصلح؟. وكيف استقبلوا محاولات قريش لتجديد الصلح؟.

فور أن علم رسول الله ﷺ بان قريشاً وحلفائها قد نقضوا الصلح، قال لمبعوث خزاعة عمرو بن سالم: «نُصرت يا عمرو بن سالم». وهذا يعني أن المسلمين كانوا على أتم استعداد لمحاربة قريش، فما أحتاج الأمر مشاورات ومناورات وإنما كان القرار الفوري من رسول الله ﷺ «نصرت يا عمرو بن سالم».

---

(1) تهذيب سيرة ابن هشام .

أما محاولات قريش الفاشلة لتجديد الصلح فقد لاقت ردوداً مختلفة من المسلمين ولكنها جميعاً كانت تتميز بالرفض لمشروع الصلح الجديد.

أما رسول ا للهﷺ فقد أعرض عن أبي سفيان ورفض أن يحدثه وهذا أبلغ إهانة لزعيم قريش أن يقابل بالتجاهل التام.

ولعل هذا الموقف يذكرنا بما كان من أمر عروة بن مسعود الثقفي عندما جاء ليفاوض المسلمين من أجل عقد الصلح وقد كان يشدُّ رسول ا للهﷺ من لحيته مبالغةً في الإهانة وكان المغيرة بن شعبة يتحفز للرد عليه ورسول ا لله يمنعه من ذلك.

أما اليوم وقد عقد الصلح وتحققت مصلحة المسلمين فإن رسول ا للهﷺ يرد على إهانات المشركين الماضية بتجاهل زعيمهم أبي سفيان.

ثم إن أبا سفيان عرف أن أكثر الناس صحبة للرسولﷺ هو أبو بكر الصديق فأراده أن يكون وسيطاً عند رسول ا للهﷺ، فذهب إليه وطلب منه ذلك، فرفض أبو بكر ذلك وقال: «لا أفعل».

ثم إن عمر بن الخطاب كان من أقرب الناس إلى رسول ا للهﷺ وكان أبو سفيان يعرف مدى تأثير عمر بن الخطاب عند المسلمين وأن له كلمة ورأياً عند رسول ا لله، فذهب إليه يطلب وساطته. فرد عليه عمر بن الخطاب رداً شديداً على الكافرين ويشف غلَّ قلوب المسلمين ويعكس إصراراً إيمانياً على مجاهدة الكفار فقال: «فو ا لله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به».

وليس أبلغ من هذا الإصرار على الجهاد أياً كانت الحالة العسكرية في المنطقة، فهو رضي اللّه عنه يعكس رغبة كل المسلمين الذين يتشوقون إلى فتح مكة والقضاء على أركان الكفر في بيت ا لله الحرام.

ولما شعر أبو سفيان بصعوبة المهمة ذهب إلى علي بن أبي طالب ليسأله الوساطة إلى رسول ا الله ﷺ مستنفراً عصبيته القبلية فذكره بأنه من أمسِّ القوم به رحماً وقرابة ولعله اختار علياً بالتحديد ولم يختر عثمان بن عفان مثلاً وهو أقرب إليه رحماً من علي، نقول لعله اختار علياً لصلة القربى التي تجمعه مع النبي ﷺ إضافة إلى قرابة الرحم بينهما.

فعرض الأمر عليه ولكنه رفض أن يستجيب له وأعلمه أن رسول ا الله ﷺ لا يرجع عن أمر عزم عليه ولما طلب رأيه في التصرف الذي عليه أن يتبعه أشار عليه أن يرجع إلى قومه فليس له غير ذلك.

ولما فشل أبو سفيان في الوساطة المطلوبة توجه إلى فاطمة الزهراء ابنة رسول ا الله ﷺ وطلب منها أن ترسل ولدها الحسن وهو صبي صغير ليجير بين الناس أي أن يحدِّث جده في إنهاء الأزمة، فرفضت فاطمة ذلك وقالت: «وما يجير أحد على رسول ا الله ﷺ».

أي أن رسول ا الله قد عزم على أمر هو أولاً من عند ا الله عز وجل وأنه لا يقبل وساطة من أحد بهذا الأمر مهما كانت صلة قرابته به. وعاد أبو سفيان إلى مكة خائباً.

رابعاً: كان قرار القتال والمواجهة قراراً فورياً اتخذه القائد العام للمسلمين ﷺ وفق مقتضيات المصلحة العامة للمسلمين.

ولم يكن هذا القرار مجرد ردة فعل عفوية وسريعة سرعان ما تنتهي وتتلاشى، وإنما كان قراراً لا رجعة فيه لذلك أمر رسول ا الله ﷺ المسلمين بالتجهز للقتال، وقد تجلَّت الحكمة العسكرية للنبي ﷺ في حرصه على مباغتة قريش وإخفاء أخباره عنها حتى يباغتها في ديارها.

و الدرس الذي نتعلمه من حكمة رسول ا الله هو الأخذ بالأسباب فالرسول الكريم يدرك أنه منتصر لا محالة وذلك لأن ا الله عز وجل قد وعده بالنصر والفتح المبين «وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين».

ولكنه ما اكتفى بالاتكال على ا لله دون الأخذ بالأسباب بالرغم من النصر المبين والمحقق حتى ولو لم يأخذ بالأسباب، إلا أنهﷺ يعلمنا دروساً لحياتنا الدنيا.

خامساً : قال رسول ا للهﷺ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». وقال العباس بن عبد المطلب رضي اللّه عنه: «أنه خرج لعله يجد من يحمل خبراً لقريش بمكان المسلمين».

كيف يكون هذا التصرف من عم رسول ا للهﷺ؟. لا نستطيع اعتبار هذا التصرف من العباس رضي اللّه عنه خيانة للمسلمين وإفشاء لأسرارهم وذلك لأنه وإن اختلف ظاهرياً مع رسول ا للهﷺ إلا أنه يلتقي معها من حيث الجوهر والهدف الاستراتيجي للمسلمين.

لقد أصدر القائد العام للمسلمينﷺ تعليماته بإخفاء أية معلومات عن قريش وذلك لمباغتتها في بلادها. وهو لا يريد بذلك استباحة دماء القرشيين وإنما يستهدف فتح مكة وتحطيم معاقل الكفر والوثنية بأقل قدر من الدماء.

ولو أن قريش استعدت لمواجهة المسلمين لوقع القتال دامياً ثمنه دماء المسلمين والقرشيين معاً ولكان ثمن فتح مكة غالياً جداً , أما المباغتة فإنها تجعل قريشاً وهي الطرف الأضعف مستعدة للاستسلام بدون قتال وبذلك يتحقق النصر للمسلمين بأقل الدماء.

إذاً فإن الهدف الإستراتيجي للمسلمين هو فتح مكة وتحريرها من الوثنية وليس استباحة دماء القرشيين. فهل يتعارض تصرف العباس مع هذا الهدف الاستراتيجي؟.

إذا ما عرفنا حيثيات هذا التصرف نعرف تماماً أنه لم يتعارض معه بل يصبُّ فيه. لم يسعَ العباس «ليجد من يحمل خبراً لقريش» إلا عندما وصل المسلمون إلى مر الظهران على مشارف مكة، وهذا يعني أن قريشاً لا تستطيع أن تتهيأ للقتال لو علمت بقدوم المسلمين فالمسلمون على مشارف مكة وهم قادرون على دخولها في وقت قصير. إذاً لم يشكل ذلك خيانةً للمسلمين وأهدافهم.

واكثر من ذلك فإن العباس حـدد هدفه من إبلاغ قريش بمكان وجود المسلمين، وهو أن تسارع قريش إلى رسول ا للهﷺ فتعلن استسلامها له وتطلب من الأمان لدمائها «و ا لله لئن دخل رسول ا للهﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر».

وقد نجحت مقاصد العباس رضي اللّـه عنه فالتقى أبا سفيان الذي سارع ليطلب الأمان لقريش.

سادساً: ولما حصل أبو سفيان على الأمان لقريش ظهرت كذلك الحنكة العسكرية لرسول ا للهﷺ عندما طلب من عمه العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق السوادي ليرى المقاتلين المسلمين.

وهذا الاستعراض ضروري حتى لا تظن قريش أن العفو الذي منحه رسول ا لله لها كان نتيجة ضعف وخوف. وكان هذا الاستعراض ضرورياً كذلك حتى ينقل أبو سفيان حقيقة ما يرى لقومه. وقد فعل ذلك.

سابعاً: ما كان لرسول ا للهﷺ أن يحابي أبا سفيان ولكنه جعل له مكانةً رفيعةً عندما أعلن إسلامه ونال الأمان من رسول ا للهﷺ. فقد أقره رسول ا لله على مكانته وزعامته لقومه وإنما أراد بذلك أن يبرهن لأبي سفيان أنه ما سعى في يوم إلى ملك أو زعامة وإنما كان يعمل لهداية الناس.

ثامناً: تحقق وعد ا لله بالفتح المبين، وتحقق الهدف الاستراتيجي بتحرير مكة. وكذلك تحققت خطة رسول ا للهﷺ بأن يتم الفتح سلماً لا حرباً.

ولو كانت حرباً لكان قادراً عليها، إلا أنه كان حريصاً على عدم إراقة الدماء لذلك فإنه أعطى أوامره واضحة لقادة الجيوش «ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم».

تاسعاً: لو أن رسول الله ﷺ أمر جيوشه بأن تفعل بقريش ما فعلت بيهود المدينة من قتل وتشريد وسبي لكان الأمر طبيعياً جداً، لأن المنتصر ينتقم من عدوه الذي لم يراعِ إلاً ولا ذمة ولم يراعِ رحماً ولا قربى.

ولكن رسول الله ﷺ تصرف مع أعداء الأمس تصرف النبي الرحيم بقومه فقد جمع الناس وأخذ إقراراً منهم بأنه قادر على فعل ما يشاء بهم «ما ترون أني فاعل بكم؟. قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم».

ما طلب ثأراً ولا انتقاماً ولا دماً بدم وإنما قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». وهذا هو خلق الأنبياء، وهذا هو خلق المؤمنين بالله عز وجل. العفو عند المقدرة وقد قدر ﷺ فعفا.

رابعاً: خيبر

بعد توقيع صلح الحديبية مع قريش في عام ستة للهجرة، تفرغ المسلمون لبناء جبهتهم الداخلية ومحاربة الأعداء الداخليين فخرج في شهر محرم من العام السابع للهجرة إلى خيبر. «وكان رسول ا لله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز عليهم حتى يصبح، فإن سمع آذاناً أمسك وإن لم يسمع أغار، فنزل خيبر ليلاً.

فبات رسول ا لله ﷺ حتى إذا أصبح لم يسمع آذاناً فركب وركبنا معه.. واستقبلنا عمال خيبر غادين.. فلما رأوا رسول ا لله ﷺ والجيش قالوا: «محمد والخميس»، فأدبروا هراباً.

فقال رسول ا لله ﷺ: «ا لله أكبر خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وكان رسول ا لله ﷺ قد نزل بوادٍ يقال له الرجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول ا لله ﷺ.

لما سمعت غطفان بمنزل رسول ا لله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا منقلة (مرحلة) سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسّاً فظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا إلى أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلّوا بين رسول ا لله ﷺ وبين خيبر.

وتدنى رسول ا لله الأموال يأخذها مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم ثم القموص..

ولما افتتح رسول ا لله ﷺ من حصونهم ما افتتح انتهى إلى حصنيهم الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول ا لله ﷺ إلى بضع عشرة ليلة.

ثم بعث رسول اللهﷺ أبا بكر الصديق برايته إلى بعض حصون خيبر فقاتل فرجع فلم يك فتح. ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يك فتح، ثم دعا رسول اللهﷺ علي بن أبي طالب وقال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك. فما رجع حتى فتح الله على يديه».

وحاصر رسول اللهﷺ أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول اللهﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف فصالحهم رسول الله على النصف على أنّا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم فكانت خيبر فيئاً للمسلمين».(١)

ولما سمع يهود فدك بما اتفق عليه رسول اللهﷺ مع يهود خيبر سألوه اتفاقاً مثله فوافق. فكانت فدك خالصة لرسول اللهﷺ لأن المسلمين لم يقاتلوا بها.

فلما رجع رسول اللهﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالٍ حتى نزلت على ما نزلت عليه خيبر، ثم رجع إلى المدينة.

مدلولات سياسية:

__أولاً__: يتميز فتح خيبر عن سواه من الفتوح بأنه أول حرب هجومية يشنها المسلمون ضد أعدائهم فقد جرت العادة قبل ذلك أن يبدأ المشركون أو اليهود بالهجوم على المسلمين ثم يتخذ المسلمون الاحتياطات الدفاعية لصد الهجوم المعادي، أو أنهم يستشعرون الخطر من اليهود فيهاجمون حصونهم دفاعاً عن أنفسهم. ولكنها المرة الأولى التي يتخذ المسلمون فيها قرار الحرب من دون استشعار خطر العدو.

وهذا يعني بحال من الأحوال أن المسلمين قد شنوا حرباً عدوانية على جيرانهم فإن لهذه الحرب هدفين واضحين:

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام .

الأول هو بناء الجبهة الداخلية للمسلمين وتصفية الجيوب المعادية في المدينة المنورة، فاليهود وإن كانوا لا يشكلون خطراً مباشراً على المسلمين إلا أنهم يشكلون نقطة ضعف للمسلمين مستقبلاً.

الثاني وهو نشر الدعوة الإسلامية، وهو الهدف الرئيسي من الهجوم وقد تجلى ذلك بوضوح عندما أعطى رسول ا لله الراية لعلي بن أبي طالب.

«فقال علي: يا رسول ا لله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟. فقالﷺ: أتنقذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق ا لله فيه فو ا لله لأن يهدي ا لله بك رجلاً واحداً خير لك من حمراء النعم، ثم خرج فقاتل فكان الفتح على يديه».(١)

إن المسلمين ليسوا عصابة تستهدف القتل والإبادة وإنما هم أصحاب رسالة أرادهم ا لله أن ينشروا هديه بين البشر جميعاً. لذلك قالﷺ : «لأن يهدي ا لله بك رجلاً واحداً خيراً لك من حمراء النعم».

ثانياً: يعتبر الانتصار في خيبر أول الثمار العسكرية لصلح الحديبية. فقد كانت قريش هي العدو الرئيسي للمسلمين، وكانت تهددهم في مدينتهم، وما كان المسلمون قادرون على التفرغ لبناء جبهتهم الداخلية والتخلص من الجيوب اليهودية المنتشرة في المدينة حتى تم الصلح.

ثالثاً: تجلّت الحكمة القيادية لرسول ا للهﷺ في هذه الحرب كما كانت تتجلى في غيرها عندما قطع الإمدادات بين غطفان وخيبر وكانت هذه الخطوة هي الأولى في هذه الحرب وذلك عندما نزل على ماء الرجيع بين غطفان وخيبر.

---

(١) فقه السيرة .

حتى تتشتت قوات المسلمين في محاربة عدوين أحدهما يتحصن بحصون متينة والآخر تمرس على الغزو والقتال.

وما أثنى غطفان عن نيتها إمداد اليهود بالمساعدات سوى خوفها من أن يغير المسلمون وجهتهم من خيبر إلى غطفان.

رابعاً: بعد حصار طويل لحصون اليهود ازداد إصرار المسلمين على الفتح وقد تأكد لليهود بأن المسلمين لن ينهوا الحصار عن حصونهم حتى يحققوا أهدافهم، القتال حتى الفتح.

لذلك نرى أن اليهود أوجدوا حلاً وسطاً للحصار فاقترحوا على المسلمين الإبقاء على حياتهم والسماح لهم بمغادرة الحصون بسلام وهذا يعني الاستسلام التام من قبل اليهود، وقد وافق المسلمون على ذلك.

ثم اقترح اليهود حلاً جديداً يتمثل بأن يستخدم اليهود في ذات الأراضي التي عملوا بها مقابل لنصف إنتاج الأرض، وكانت موافقة المسلمين مرتبطة بشرط لا بد منه لإعلان الانتصار وهو أنه يحق للمسلمين إخراج اليهود من هذه الأرض في أي وقت شاؤوا ذلك ومن دون أي مبررات.

وقد بقي اليهود في أراضي خيبر وفدك ووادي القرى حتى كان عهد عمر بن الخطاب أمير المؤمنين حيث أجلاهم عنها. «ثم إن يهود خيبر مكثوا يزرعون الأرض على نصف إنتاجها إلى أن كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فقتلوا أحد الأنصار وعَدَوا على عبد الله بن عمر، فقال للناس: ليس لنا عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإني مخرجٌ يهود».(١)

---

(١) فقه السيرة .

خامساً: مفاوضات الطائف

لما رجع المسلمون منتصرين من خيبر قصدوا الطائف لنشر دين ا لله فيها، «ثم مضى رسول ا للهﷺ حتى نزل قريباً من الطائف فضرب به عسكَرَهُ.. فحاصرهم رسول ا للهﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً وتراموا بالنبل، حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول ا للهﷺ تحت دبابة ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها..

وإن رسول ا للهﷺ قال لأبي بكر وهو محاصر ثقيفاً: «يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت لي قبعة مملوءة زبداً فنقرها ديك فهراق ما فيها». فقال أبو بكر: «ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد». فقال رسول ا للهﷺ: «و أنا لا أرى ذلك..»

ثم إن خويلة بنت حكيم السلمية وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت: «يا رسول ا لله أعطني إن فتح ا لله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان أو حلي الفارعة بنت عقيل». فقال لها: «وإن لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة؟».

فخرجت خويلة فذكرت لعمر بن الخطاب ذلك، فدخل على رسول ا للهﷺ فقال: «يا رسول ا لله ما حديث حدثتنيه خويلة زعمت أنك قلته؟». قالﷺ: «قد قلته».

قال رضي اللّه عنه: «أو ما أذن لك فيهم يا رسول ا لله؟». قالﷺ: «لا». قال: «أفلا أُوَذن بالرحيل؟». قالﷺ: «بلى».

قال: فأذن عمر بالرحيل. وكان جميع من استشهد بالطائف من أصحاب رسول ا للهﷺ اثنا عشر رجلاً. ثم خرج رسول ا للهﷺ حين انصرف عن الطائف وقد قال له رجل: «يا رسول ا لله ادع عليهم».

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهدهم وآت بهم». ثم إن رسول الله ﷺ أدى العمرة سنة ثمان للهجرة في شهر ذي القعدة ثم عاد إلى المدينة المنورة في أول ذي الحجة.

وكان من أمر ثقيف أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، فسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام. فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلوك». فقال عروة: «يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم».

وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم. فلما أظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل جهة فأصابه سهم فقتله.

فقيل لعروة: «ما ترى في دمك؟». قال: «كرامة أكرمني بها الله وشهادة ساقها الله إلي فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنوني معهم».

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا. وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسوا عروة، فكلموا عبد يا ليل بن عمرو بن عمير وعرضوا عليه فأبى أن يفعل وخشي أن يصنع به كما صنع بعروة.

فقال: «لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً». فبعثوا مع عبد يا ليل، الحكم بن عمرو بن وهب، وشرحبيل بن غيلان، وعثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونمير بن خرشة.

فخرج بهم عبد ياليل وهو صاحب أمره فلما دنوا من المدينة ألفوا المغيرة بن شعبة وهو من ثقيف فذهب ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه فلقيه أبو بكر فأخبره عن الركب، فقال أبو بكر: «أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا

فأحدثه». ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدومهم عليه ثم خرج المغيرة إلى أصحابه وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية.

ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم».(١)

المفاوضات:

قال عبد ياليل: «أفرأيت الزنا، فإنا قوم نغترب ولا بد لنا منه». قال رسول الله ﷺ: «هو حرام عليكم فإن الله يقول: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً». قال: «أفرأيت الربا، فإنه أموالنا كلها». قال ﷺ: «لكم رؤوس أموالكم، إن الله تعالى يقول: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين». قال عبد ياليل: «أفرأيت الخمر، فإنه عصير أرضنا لا بد منه». قال ﷺ: «إن الله حرمها» وقرأ آية تحريم الخمر. سألوه أيضاً أن يضع عنهم الصلاة فقال ﷺ: «لا خير في دين بلا صلاة». فقالوا: سنؤتيكها ولو كانت دناءة.(٢)

فخلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في الأمر ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ وقد خضعوا لذلك كله ولكنهم سألوه أن يدع لهم وثنهم الذي كانوا يعبدونه (اللات) ثلاث سنين لا يهدمها. فأبى رسول الله ﷺ فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى أن يدعها إلى أي أجل.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام .

فقالوا لرسول الله ﷺ: «فتول أنت إذاً هدمها فأما نحن فإنا لا نهدمها أبداً». فقال لهم: «فسأبعث من يكفيكم ذلك». ثم استأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم وأكرمهم وحياهم وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رأى حرصه على الإسلام. وبعث رسول الله ﷺ إليهم وفداً على أثرهم أمَّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بي شعبة وأبو سفيان بن حرب فعمدوا إلى اللات فهدموها وخرجت نساء ثقيف حُسَّراً يبكين عليها ويرثينها.(١)

مدلولات سياسية:

أولاً: لابد من التوقف مجدداً عند الحكمة العسكرية والسياسية لرسول الله ﷺ، هذه الحكمة التي تتجلى بالقرارات التي يتخذها ﷺ، لم تكن نتيجة لدراسة أكاديمية وإنما لخبرات مكتسبة ولفطنة ذاتية ومصلحة دينية.

وفي حصار الطائف تجلت هذه الحكمة بالقرار الذي اتخذه ﷺ بفك الحصار عن الطائف والعودة إلى المدينة. فعندما أدرك رسول الله ﷺ أنه لا مجال لاقتحام حصن الطائف وأن هذا الحصار سوف يكبد المسلمين خسائر كبيرة من دون تحقيق المصلحة المرجوة منه. فقد بدا أن ثقيفاً أبعد ما تكون عن الإسلام وكذلك بدا أن الانتصار بعيد المنال نظراً لتمرس ثقيف بالقتال فقد اختلفت طبيعة هذه الحرب عن الحروب التي كانت دائرة بين المسلمين وبين قريش ويهود المدينة.

وبالرغم من محاولات المسلمين التجاوب مع هذه المستجدات من خلال استخدام الدبابات الخشبية إلا أن الدفاعات الطائفية كانت أقوى. والحكمة العسكرية والسياسية لا تقتضي الاستمرار في معركة وحصار لا طائل منه وإنما الحكمة تقتضي الخروج من هذه المعارك بأقل عدد ممكن من الخسائر.

---

(١) فقه السيرة.

وبالرغم من أن القرار النبوي كان ملزماً للمسلمين وأن أحداً من المسلمين لن يعترض عليه إلا أن رسول الله ﷺ استشار اثنين من قادة المسلمين هما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، فأشار أبو بكر إلى أنه «ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد».

ثم إنه عندما علم عمر بن الخطاب بذلك جاء إلى رسول الله ﷺ واستوثق الخبر ثم قال: «أفلا أُؤذن بالرحيل؟». قال: «بلى». فأذن عمر بالرحيل.

ثانياً: عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى الطائف هرباً من بطش قريش التقته ثقيف ببطش أشد وتعذيب أنكى. ولما جاءه جبريل عليه السَّلام يعرض عليه أن يُطبِقَ عليهم الجبلين عقاباً لهم عما فعلوه، أبى رسول الله ﷺ ذلك وقال: «عسى أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله».

واليوم يتكرر الحرص النبوي على إسلام ثقيف عندما طلب منه أحد الصحابة أن يدعوا على ثقيف، قال: «اللهم اهدهم وآت بهم». فالنبي ﷺ ما جاء بدين يسفك الدماء ويقتل الناس وإنما جاء بدين يهدي إلى سبيل الرشاد لذلك نراه يقابل كل إساءة من أعدائه بتسامح وعفو وكان يرجو الله الهداية لقومه ولأعدائه. وقد استجاب ربنا ﷻ لدعاء النبي ﷺ، وجاءت ثقيف إلى رسول الله ﷺ تطلب الإسلام.

ثالثاً :لم يكن قرار ثقيف بإتباع دين الله ناتجاً عن إيمان عقائدي أو تغيير فكري، وإنما كان قراراً سياسياً اقتضته ظروف المصلحة الخاصة بثقيف، فقد اجتمع قادة ثقيف وأدركوا سياسياً أنهم غير قادرين على مواجهة جميع العرب بعد أن أصبحت القبائل العربية على دين الله ومن هذا الإدراك كان قرارهم مبايعة رسول الله ﷺ على الإسلام، وإن ما يدل على هذا القرار السياسي أن موفد ثقيف عبد ياليل رفض أن يقوم بمهمة الاتصال برسول الله ﷺ لوحده فقد كان يخشى أن يقتله قومه إذا ما أعلن إسلامه، ولو أن قرار ثقيف كان قراراً دينياً عقائدياً لما خشي عبد ياليل على نفسه من قومه.

لذلك بعث ثقيف معه وفداً يضم خمسة أعضاء يمثلون جميع الأطراف في ثقيف. وتجلى التوجه السياسي لهذا القرار أيضاً من خلال المفاوضات التي تمت بين رسول الله ﷺ ووفد ثقيف في المدينة المنورة.

رابعاً: على عكس مفاوضاته مع قريش في الحديبية فإن رسول الله ﷺ رفض تقديم أية تنازلات لثقيف وذلك يرجع إلى اختلاف الظروف السياسية وموازين القوى بين حالتي التفاوض. ففي الحديبية كان الطرف الإسلامي هو الأضعف وهو محاط بالأعداء من كل جانب وكان من المصلحة أن يخضع المسلمون لإملاءات قريش المجحفة بحق المسلمين والتي انقلبت فيما بعد لصالح المسلمين.

وكذلك فإن طبيعة التفاوض مختلفة في الحالتين، ففي الحديبية كان الصلح بين عدوين بهدف وضع الحرب بينهما على أن يبقي كل منهما على دينه.

أما المفاوضات مع ثقيف فهي مختلفة تماماً عن ذلك فالمسلمون هم الطرف الأقوى وهم الذين يحيطون بثقيف من كل جانب وثقيف هي التي تحتاج إلى هذا الصلح لأنها قد وجدت نفسها محاصرة بالمسلمين من كل جانب. والهدف الرئيس من مفاوضات ثقيف هو إعلان انضمام ثقيف إلى الإسلام وليس عقد صلح معها وإنهاء حالة الحرب بين الطرفين.

خلال هذه المفاوضات رفض رسول الله ﷺ تقديم أية تنازلات لثقيف، لأن أي تنازل أمامهم سوف يعطي صورة مشوهة للإسلام وسوف يتيح لجميع المسلمين اختراق حدود الله فقد سألوا رسول الله ﷺ إباحة الزنا «إنا قوم نغترب ولابد لنا منه»، ثم سألوه إباحة الربا «إنه أموالنا كلها»، ثم سألوه إباحة الخمر «إنه عصير أرضنا لا بد لنا منه» ثم سألوه إسقاط الصلاة وسألوه كذلك الإبقاء على وثنهم اللات.

وفي الحقيقة فإن رئيس الوفد الثقفي كان يريد إفراغ الدين الإسلامي من محتواه، وبدقة أكثر فإنه أراد من المسلمين إتباع دينه لا العكس، وما كان رسول الله ﷺ ليفعل ذلك.

ولأن النبي ﷺ لا يريد أن يدخل في جدل عقيم مع ثقيف فما رد عليهم برأيه الشخصي بل قال لهم: «هو حرام عليكم، قال الله تعالى..» وكان يورد النص الشرعي من كتاب الله ﷻ وذلك لأن تحريم الزنا والربا والخمر ليس باجتهاد من رسول الله وإنما بأمر من الله ﷻ وليس للنبي أن يقضي بخلاف ما جاء من عند الله.

أما وضع الصلاة فذلك يعني تهديم الدين إذ أن الصلاة عماد الدين فمن هدمها هدم الدين، لذلك قال لهم ﷺ: «لا خير في دين لا صلاة فيه». وكذلك لم يقبل من ثقيف أي تهاون بأمر الوثن اللات ولم يرضَ ببقائه ولا لشهر واحد بالرغم من أن مبررات الوفد كانت هي الخوف من قومهم وليس الإيمان بالوثن، ولكنه أجابهم على أمر واحد وهو أن يتولّى المسلمون هدم الأوثان وليس ثقيفاً.

__*خامساً*__: أرسل رسول الله وفداً لهدم أصنام ثقيف، ويضم هذا الوفد كلاً من خالد بن الوليد رئيساً والمغيرة بن شعبة الثقفي وأبي سفيان بن حرب، ولكل رجل من هؤلاء دلالاته العميقة في هذه العملية. فخالد بن الوليد قائد عسكري فذ ووجوده على رأس الوفد يعني أن القوة العسكرية الإسلامية حاضرة وهي التي فرضت هذا الأمر، وذلك أن ثقيفاً قتلت زعيمها عروة بن مسعود عندما أعلن إسلامه، ووجود خالد يعني أن أي غدر بالمسلمين يشكل بداية حرب جديدة.

أما المغيرة بن شعبة فهو رجل ثقفي كان قد أسلم مبكراً ووجوده في الوفد الذي هدم أصنام ثقيف يعني أن ثقيفاً شاركت في هدم أصنامها.

أما أبو سفيان فهو الحليف الأوفى لثقيف قبل أن يعلن إسلامه ووجوده في الوفد يعني أن التحالفات القديمة قد انهارت وتبدلت، وحليف الأمس الذي اجتمع مع ثقيف على محاربة الإسلام هو الآن يشارك في هدم الأوثان التي كانوا يعبدونها سابقاً، بل وإنه كان يسخر من نساء ثقيف اللاتي كن يبكين على أوثان الطائف وهي تُهدم.

الفصل الثالث

مفاوضات الدولة الإسلامية

مدخل:

كانت مفاوضات ثقيف هي آخر المفاوضات التي أجراها رسول ا لله ﷺ مع أعدائه، حيث أن الطائف كانت آخر معقل الكفر في الجزيرة العربية. ولما انتقل رسول ا لله ﷺ إلى رحمة ا لله ما كان في الجزيرة العربية أي معقل للكفار، بل وإن رسول ا لله ﷺ باشر حربه ضد القوتين العظميين آنذاك الفرس والروم.

وبدايةً فقد أرسل جيشاً لمواجهة الروم في مؤتة في الشام بقيادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد ا لله بن رواحة، ثم إنه جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لاستكشاف الروم في جنوب بلاد الشام، وقد توفي رسول ا لله ﷺ قبل أن يرسل هذا الجيش ولكنه أوصى بأن يسير الجيش بعد وفاته وقد عمل الخليفة أبو بكر الصديق على تنفيذ وصية رسول ا لله ﷺ فأرسل هذا الجيش إلى حيث وجهه رسول ا لله ﷺ.

ثم تفرغ أبو بكر لمحاربة المرتدين الذين ظهروا بعد وفاة رسول ا لله ﷺ وقد كتب ا لله ﷻ النصر للمسلمين في هذه الحروب واستقر وضع الإسلام في الجزيرة العربية، وشهدت الدولة الإسلامية الوليدة استقراراً مكّنها من متابعة مسيرة الفتح.

كان الخليفة أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه قد جهز جيوش الفتح الإسلامي وكان سعد بن أبي وقاص على رأس الجيش المتوجه إلى العراق لمحاربة الفرس، وأبو عبيدة عامر بن

الجراح على رأس الجيش الذي توجه إلى الشام لمحاربة الروم. ولكن المنية وافته رضي الله عنه قبل أن يرى انتصارات المجاهدين في سبيل ا لله.

وتولى أمر المسلمين بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وقد تم الفتح المبين من ا للهﷻ في عهدة فانتصر المسلمون في القادسية على الفرس وانتصروا كذلك في اليرموك على الروم وتواصلت مسيرة الفتح نحو مصر.

من خلال هذه الفتوحات التي تمت في عهده رضي اللّه عنه نستطيع أن نرصد اتفاقين هامين تم إبرامهما بين المسلمين وأعدائهما.

أما الاتفاق الأول فهو ما يعرف بالتاريخ الإسلامي باسم الوثيقة العمرية والتي تم بموجبها فتح القدس والتي تم التوصل إليها بين المسلمين ونصارى القدس ثم باقي المدن الفلسطينية التي وقعت مع المسلمين اتفاقيات مشابهة لوثيقة بيت المقدس.

أما المفاوضات الثانية فهي التي مثل المسلمون فيها أمير الجيوش إلى مصر عمرو بن العاص رضي اللّه عنه والتي عقدت مع أقباط مصر وأسفرت عن فتح مصر نهائياً أمام جيوش الإسلام.

وفي كلا الحالتين يمكن أن نعتبر هذين الاتفاقين نموذجين آخرين للمفاوضات والصلح في الإسلام لأنهما وقعا في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وفي زمن لا زال فيه صحابة رسول ا للهﷺ على قيد الحياة وقد أقروا هذين الاتفاقين..

أولاً: الوثيقة العمرية لأهل القدس

لما هزم الروم في موقعة اليرموك تجمعت بقايا قواتهم في بيت المقدس في فلسطين، ثم تقدم المسلمون نحو بيت المقدس وحاصروه، وأرسل عمرو بن العاص رسالة إلى قائد الحامية الرومي يطلب منه الاستسلام، إلا أن هذا القائد سخر من هذه الرسالة ورد عليه: «إن الذي سيفتح القدس اسمه يتكون من ثلاث حروف وليس من أربعة».(١)

بعد حصار طويل طلب البطريرك صفرونيس من المسلمين أن يحضر أميرهم ليتم تسليم المدينة لهم فتقدم عمرو بن العاص، فقال له البطريرك: «إننا نريد أن يكون التسليم لأمير المسلمين نفسه».

فكتب القائد العام لجيوش المسلمين في الشام أبو عبيدة عامر بن الجراح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره أن أهل مدينة القدس طلبوا منه «أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولي عمر بن الخطاب».(٢)

فخرج أمير المؤمنين من المدينة قاصداً بيت المقدس ومعه راحلة واحدة وغلام، فكان عمر يمشي تارة ويركب غلامه ثم يركب عمر ويمشي غلامه.

ولما وصلا إلى جبل مشرف على المدينة (جبل المكبِّر) قال الغلام: «لا تنزلن ولا أركبن، فإنا مقبلون على مدينة فيها مدنية وحضارة فإن دخلنا على هذه الصورة أنا راكب على الراحلة وأمير المؤمنين آخذ بمقودها هزئوا بنا وسخروا من أمرنا وقد يؤثر ذلك على نصرنا».

---

(١) تاريخ الطبري الجزء الثالث ص ٦٠٦

(٢) تاريخ الطبري الجزء الثالث ص ٦٠٨

فقال عمر: «دورك، ولو كان دوري ما نزلت وما ركبت». ونزل عمر وركب الغلام وأخذ عمر بمقودها.

فلما بلغ سور المدينة وجد وفداً نصرانياً يرأسه البطريرك صفرونيس بانتظاره بباب دمشق، فلما رأوه آخذاً بمقود الراحلة أكبروه وخروا له ساجدين فصاح بهم الغلام: «ويحكم ارفعوا رؤوسكم فإنه لا ينبغي السجود إلا لله».

ثم انتحى البطريرك ناحية وبكى، فتأثر عمر وأقبل عليه يطيب خاطره ويواسيه: «لا تحزن، هون عليك، يوم لك ويوم عليك».

فقال البطريرك: «أظننتني لضياع الملك بكيت؟. إنما بكيت لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية ترق ولا تنقطع فدولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة».

قال أمير المؤمنين مخاطباً جموع مستقبليه: «يا أهل إيلياء لكم ما لنا وعليكم ما علينا». وقام أمير المؤمنين بزيارة كنيسة القيامة بناء على دعوة البطريرك فأدركته الصلاة وهو فيها فقال للبطريرك: «أين أصلي». فأجابه: «صلِّ مكانك».

فقال عمر: «ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة فيأتي المسلمون من بعدي ويقولون هنا صلى عمر ويبنون عليه مسجداً». وابتعد عنه رمية حجر وفرش عباءته وصلى.[1]

---

(1) تاريخ فلسطين القديم : ظفر الإسلام خان نقلاً عن " خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية " عبد الله التل

، دار القلم القاهرة ١٩٦٤

نص الوثيقة العمرية:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم لا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت،([1]) فمن خرج منها فإنه آمن ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان([2]) فمن شاء منهم قعد وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، عبد الرحمن بن عوف، معاوية بن أبي سفيان.

كتب وحضر سنة خمس عشرة».([3])

([1]) اللصوت : اللصوص .

([2]) لم تسم الوثيقة الاسم

([3]) تاريخ فلسطين القديم : ظفر الإسلام خان ، دمشق ١٩٨١.

مدلولات سياسية:

أولاً : نتعلم من سيرة أمير المؤمنين في زحفه نحو القدس وتوقيعه الوثيقة العمرية أنه لا بد للمنتصر أن يحترم اعتقادات الآخرين ودياناتهم حتى ولو كانوا مهزومين عسكرياً. وذلك ينسجم تماماً مع القاعدة المعروفة إسلامياً «العفو عند المقدرة» وقد تجلى ذلك بوضوح عندما رفض عمر بن الخطاب أن يسجد له وفد النصارى القادم لاستقباله عند أبواب المدينة ثم إنه أقبل على بطريرك النصارى ليطيب خاطره «لا تحزن، هون عليك» ثم إنه خطب في جموع مستقبليه: «لكم ما لنا وعليكم ما علينا».

بل إن الاحترام الأكبر لمعتقدات الآخرين تجلى عندما رفض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يصلي في كنيسة القيامة عندما أدركته الصلاة وذلك حتى لا يتخذ المسلمون هذه الصلاة ذريعة لهم فيهدموا الكنيسة ويقيموا مسجداً لهم مكانها.

ثانياً : جاء في الوثيقة العمرية أنه على المسلمين أن يضمنوا لأهل إيلياء أماناً لهم في أنفسهم وأموالهم ومعتقداتهم وكنائسهم وجميع أهل المدينة. وأعطى كامل الحرية لمن شاء أن يغادر المدينة أو أن يقيم فيها أو يعود إليها.

وهذا يعني أن أهل إيلياء النصارى نالوا كامل حريتهم الدينية والشخصية والمدنية.

ثالثاً : تضمن نص الوثيقة صراحة أن لا يسمح لليهود بالإقامة في إيلياء، وقد جاء هذا البند بناءً على طلب أهل المدينة الذين عانوا الأمرين من اليهود وكذلك استجابة من المسلمين الذين عانوا من غدر اليهود في المدينة المنورة.

وقد أصبح اليهود بموجب هذا الإتفاق ممنوعون من الإقامة في القدس، إلا أن الوثيقة لم تحرم اليهود من ممارسة شعائرهم الدينية والحج إلى القدس إذا هم أرادوا ذلك من دون الإقامة فيها.

رابعاً: نصت الوثيقة بوضوح أنه لا يجوز للغرباء الروم الإقامة في القدس، وإذا كان فيهم من يرغب بذلك فإنه يعامل مثل أهل المدينة ويدفع الجزية. ونصت الوثيقة كذلك على ضرورة إخلاء المدينة من اللصوص وقاطعي الطريق، وهم عادة من المرتبطين مع المحتلين.

خامساً: نصت الوثيقة على ضرورة دفع الجزية من قبل أهل القدس، وهذه الجزية ليست إذلالاً لهم وليست ضريبة تؤخذ منهم إنما هي حق ا لله الذي فرضه على أهل الذمة مقابل ما يتمتعون به من حماية لأموالهم وأعراضهم وأنفسهم.

وهي واجبة على جميع أهل الذمة الذين يعيشون في الدولة الإسلامية وليست خاصة بأهل إيلياء.

ثانياً: معاهدة الصلح مع المقوقس

توجه جيش المسلمين المؤلف من أربعة آلاف مقاتل إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص لنشر دين الله فيها، ثم أرسل أمير المؤمنين مؤازرة تضم أربعة آلاف مقاتل آخر يقودهم: الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد.

وقد فرض الجيش الإسلامي حصاراً على حصن بابليون دام سبعة أشهر حيث جرت بعد ذلك مفاوضات بين المسلمين والأقباط. اشترط المسلمون على الأقباط اختيار واحد من ثلاثة:

١- الدخول في الإسلام.

٢-دفع الجزية مقابل احتفاظهم بدينهم.

٣-القتال.

ثم إن المقوقس أرسل مندوبه إلى معسكر المسلمين لمعرفة شروطهم للصلح، وقد تعمد الأمير عمرو بن العاص أن يتأخر بالرد على مندوب المقوقس بهدف إطلاعه على مدى قوة جيش المسلمين.

حمل المندوب شروط المسلمين إلى المقوقس عظيم القبط ونقل له أيضاً صورة الأوضاع التي يعيشها المسلمون، وقد جاء في وصفه لحالهم: «رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا نهمة وإنما جلوس في التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رضيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم».

فقال المقوقس: «لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد منهم، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقدروا على الخروج من موضعهم».

ثم وصل عبادة بن الصامت إلى الحصن المحاصر ليحمل رد المقوقس على خيارات المسلمين، فحمل موافقة المقوقس على دفع الجزية للمسلمين.. حمل المقوقس الاتفاق الذي وقعه مع المسلمين لدفع الجزية، حمله إلى الإمبراطور هرقل إمبراطور بيزنطة، لكن الإمبراطور هرقل رفض دفع الجزية وغضب على المقوقس ونفاه. فما كان من المقوقس إلا أن اتصل مع أمير الجيوش الإسلامية عمرو بن العاص وأطلعه على رفض هرقل للصلح ودفع الجزية مؤكداً أنه (أي المقوقس) ما زال متمسكاً بالاتفاق.

لكن هرقل أصدر أوامره باستئناف القتال ضد المسلمين.. اتفق عمرو بن العاص مع المقوقس أن يضمن الأقباط حماية الجسور من جيوش بيزنطة ليتمكن المسلمون من استخدامها وتأمين أماكن ضيافة لاستقبال المسلمين ما بين الفسطاط والإسكندرية.

زحفت جيوش المسلمين نحو الإسكندرية وحاصروها وكان فيها ١٥٠ ألف بيزنطي يدافعون عنها، خلال أربعة أشهر من الحصار المستمر للإسكندرية لم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها. اتصل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مع عمرو بن العاص وزوده بالأوامر والتعليمات العسكرية اللازمة لاقتحام المدينة.

جهز عمرو بن العاص جيش الفتح بقيادة عبادة بن الصامت وفتح الله الإسكندرية على يديه عام ٢٠ للهجرة..

بالرغم من أن الإسكندرية قد فتحت عنوة فقد اعتبر عمرو بن العاص أهلها أهل الذمة وكأنها فُتحت صلحاً. أرسل الإمبراطور الروماني الجديد قسطنطين بن هرقل طالباً الصلح مع المسلمين وأوعز للمقوقس بأن يمثل الأقباط في هذا الصلح.

وفي تشرين الثاني ٢١ هـ الموافق ٦٤١ م تم التوقيع على الصلح. وقد جاء في هذا الصلح:

١- أن يدفع غرامة كل من فرضت عليه الجزية دينارين في كل سنة.
٢- إعلان الهدنة لمدة أحد عشر شهراً.
٣- يحتفظ المسلمون بمراكزهم طوال مدة الهدنة على أن لا يباشروا أعمالاً حربية ضد الإسكندرية ويتوقف جنود بيزنطة عن الأعمال العدائية.
٤- أن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وأن لا يتدخلوا في شؤون المسيحيين.
٥- يرحل جنود بيزنطة الذين يشكلون حامية الإسكندرية من المدينة مع أموالهم وأمتعتهم وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحيلهم.
٦- يسمح لليهود البقاء في المدينة.
٧- عدم قيام أي جيش رومي بمحاولة استرداد مصر.
٨- أن يحتجز المسلمون مائة وخمسين جندياً رومياً وخمسين مدنياً بمثابة رهائن لتنفيذ الاتفاق.

نكث الروم اتفاقية وقتلوا الحامية الإسلامية في الإسكندرية وزحفوا نحو الفسطاط. فهبَّ المسلمون بقيادة عمرو بن العاس إلى جيش الروم وهزموه ثم استولوا على الإسكندرية وهدموا أسوارها ولكن المسلمين استمروا في معاملة النصارى على أساس الصلح وحتى يعزز المسلمون انتصارهم واصلوا زحفهم نحو برقة لتأمين حماية المسلمين من أي غدر بيزنطي جديد..([1])

مدلولات سياسية:

أولاً : يتبين من النص السابق أن الأقباط هم الذين أرسلوا مندوبيهم إلى المسلمين لمعرفة شروط الصلح وهذا يعني دائماً أن الطرف الأضعف هو الذي سيطلب الصلح، وذلك أن المسلمين قد فرضوا الحصار على الأقباط لمدة طويلة مما أفقد الأقباط المقدرة على الصمود واختاروا الصلح مع المسلمين على الحل العسكري، لذلك أرسلوا مندوبيهم إلى المسلمين لمعرفة شروطهم للصلح.

([1]) العصر الراشدي والأموي

ثم إن المسلمين عرضوا على الأقباط الخيارات الثلاثة: الإسلام، الجزية، القتال. فاختار الأقباط الجزية.

ثانياً: اتبع أمير المؤمنين للجيش الإسلامي تكتيكاً معنوياً عندما احتبس مندوب المقوقس حتى يرى قوة المسلمين وبأسهم ليكون ذلك تعزيزاً لشروط صلح الأقوياء، وبالفعل فقد كان لهذا التكتيك مردودة السريع عندما نقل هذا المندوب لجماعته وصفاً عاماً للمسلمين «رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة..» فقد شعر المقوقس أن هؤلاء الرجال الذين يصفهم مبعوثه لا يمكن هزيمتهم وقد تعززت فرص السلام وفق شروط المسلمين نتيجة لذلك «لئن لم نغتنم صلحهم اليوم لم يجيبونا بعد اليوم».

وهذا التكتيك ليس جديداً في الحياة العسكرية الإسلامية فقد اتبعه سابقاً رسول الله ﷺ عندما أمر عمه العباس أن يحتبس أبا سفيان عند فتح مكة. وإن ذلك ليدل أن الطرف الأقوى دائماً هو الذي يفرض شروطه على الطرف الضعيف وما استعراض القوى إلا تأكيد على أن هذا الصلح قد تم انتزاعه بقوة السلاح.

ثالثاً: نتيجة للصلح الذي تم بين المقوقس عظيم القبط وبين المسلمين فقد وقع خلاف حاد داخل الصفوف المسيحية، فالإمبراطور هرقل يمثل القيادة والمرجعية الأخيرة للمقوقس، ويمثل المقوقس القيادة المحلية للأقباط في مصر.

وقد ارتأت القيادة المحلية أن تتصالح مع المسلمين نظراً لما رأته على أرض الواقع من قوة المسلمين وإصرارهم على أحد الخيارات الثلاثة: الإسلام، الجزية، القتال.

ولكن القيادة العليا المتمثلة بالإمبراطور رفضت هذا الصلح ورأت فيه إهانة لهيبة الدولة البيزنطية فقد عمد مباشرة إلى نفي المقوقس بما يتضمنه هذا النفي من عزل له من منصبه، وأعطى أوامره بمواصلة القتال ضد المسلمين. وقد يبدوا هذا الأمر طبيعياً لو استكان المقوقس لأوامر إمبراطوره، بل نراه يبعث لأمير الجيوش الإسلامية عمرو بن العاص يخبره انه لا زال مُصِرّاً على الصلح وأنه سيدفع الجزية خلافاً لأوامر الإمبراطور.

وكان لهذا التصرف من المقوقس انعكاساته على الأقباط جميعاً عندما انتصر المسلمون واقتحموا الإسكندرية فلم يعاملوا أهلها معاملةَ المهزوم بل عاملوهم على أساس الصلح الموقع مع المقوقس وتلك حنكة سياسية لعمرو بن العاص.

رابعاً: لما استأنف الإمبراطور القتال ضد المسلمين، وقد لمس عمرو بن العاص رفض المقوقس لهذا الهجوم قرر الاستفادة من هذا الخلاف الداخلي بين النصارى واتفق مع المقوقس النصراني على أن يضمن الأقباط وهم أهل البلاد للمسلمين حماية الجسور من جيوش بيزنطة وكذلك أن يؤمنوا لهم أماكن للضيافة بين الفسطاط القاهرة حالياً والإسكندرية. وقد فعل الأقباط ذلك حقيقة.

وهذا المبدأ جديد في الحياة العسكرية الإسلامية وهو الاستعانة بالكفار لقتال الكفار. وهذه الاستعانة كانت تستند بالأساس على التفوق العسكري الإسلامي والذي ينقصه البعد الاستراتيجي الجغرافي، وقد أمنه الأقباط لهم.

خامساً: أثناء التقدم العسكري حدث تغيير سياسي مهم في الجانب الرومي حيث توفي الإمبراطور هرقل وتولى السلطة بعده ابنه قسطنطين، وقد أوعز إلى المقوقس في مصر أن يمثل الأقباط في مفاوضات جديدة مع المسلمين.

وقد أدت هذه المفاوضات إلى عقد صلح في عام ٢١ للهجرة الموافق عام ٦٤١ للميلاد. وقد نص هذا الصلح على وقف الأعمال الحربية لمدة أحد عشر شهراً، وقد ظهرت بوضوح الشروط الإسلامية المفروضة على الأقباط مما يعكس حقيقة التفوق العسكري للمسلمين «احتفاظ المسلمين بمراكزهم، جلاء قوات بيزنطة، احتجاز رهائن عسكريين ومدنيين، ودفع الجزية..».

أما جلاء قوات بيزنطة فذلك إصرار إسلامي على طرد الغرباء من الإسكندرية باعتبار أن وجودهم في الإسكندرية يشكل احتلالاً عسكرياً وانتقاصاً للسيادة العربية والانتصار الإسلامي. وأما احتجاز الرهائن فذلك لأن المسلمين يدركون تماماً أن هذا الاتفاق وقع نتيجة لانتصارات عسكرية إسلامية وهزائم بيزنطية وأنه لا ضمانة من الغدر البيزنطي إذا ما تغيرت موازين القوى سوى احتجاز رهائن من العسكريين والمدنيين الروم.

أما احتفاظ المسلمين بالمراكز التي استولوا عليها فذلك يرجع إلى أن المسلمين حصلوا على هذه المراكز نتيجة للتضحية التي قدموها في أشهر القتال وأن هذا الاتفاق يعكس انتصاراً عسكرياً ولا يوجد أي مبرر أو ضغوط تضطر المسلمين للانسحاب من هذه المراكز والتخلي عن تضحياتهم.

سادساً: أفرد الاتفاق بنداً خاصاً باليهود، حيث سمح الاتفاق لليهود البقاء في المدينة، وذلك على عكس ما جاء في الوثيقة العمرية لأهل القدس. لماذا؟. إن هذا الاختلاف بين المعاهدتين بخصوص اليهود لم يكن نتيجة لاختلاف التشريعات أو لاختلاف موقف المسلمين أو النصارى من اليهود. ولكنه جاء نتيجة لاختلاف الظروف السياسية واختلاف المصلحة العامة للطرفين.

ففي بيت المقدس اتفق المسلمون والنصارى على عدم السماح لليهود بالإقامة في القدس حيث أن لليهود أطماع وادعاءات دينية شعر بها أهل القدس لذلك اشترطوا على المسلمين عدم السماح لهم بالإقامة في المدينة وقد استجاب المسلمون لهذا الشرط لأنهم شعروا بالخطر الذي مثله اليهود في المدينة المنورة.

أما في الإسكندرية فلا توجد أطماع يهودية بالسيطرة عليها ولا يوجد ادعاء بالوعد الإلهي المقدس بمنحهم هذه الأرض لذلك فإن أقباط مصر لم يمانعوا في بقاء اليهود معهم في مدينتهم، وكذلك لم يمانع المسلمون في بقاء اليهود في الإسكندرية كرعايا في الدولة الإسلامية تماماً مثل يهود الشام وأذرعات وغيرها.

سابعاً: نكث إمبراطور بيزنطة الاتفاقية، فقتل أنصاره الحامية الإسلامية في المدينة ثم زحفوا نحو فسطاط. ولكن المسلمين وهم الأقوياء عسكرياً ردوا على ذلك بالهجوم على الإسكندرية والسيطرة عليها عسكرياً.

ولم يكتف المسلمون بذلك بل اندفعوا نحو برقة وسيطروا عليها، وجعلوا منها ثغراً متقدماً لمواجهة أي غدر بيزنطي جديد، وهذه الخطوة تمثل تكتيكاً عسكرياً فالهجوم هو خير وسيلة للدفاع.

ثالثاً: الاتفاق مع الروم

إذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه هو الذي أرسى أركان الدولة الإسلامية فإن أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان يعتبر المؤسس الثاني لهذه الدولة بسبب الاستقرار الذي شهدته الدولة في عهده بعد الفتنة التي حصلت باستشهاد عثمان وعلي رضي اللّه عنهما..

فقد عمل الخليفة معاوية على نشر الدعوة الإسلامية في المناطق المجاورة للدولة الإسلامية، فأعد حملة بحرية لاحتلال القسطنطينية عام ٥٠ للهجرة بقيادة فضالة بن عبيد الله الأنصاري وبسر بن أرطأة وسفيان بن عوف، ثم أعاد الكرة مرة أخرى سنة ٥٣ للهجرة بقيادة عبد الرحمن بن خالد.

وكانت الجيوش الإسلامية تحاصر القسطنطينية ربيعاً وصيفاً ثم يفكون الحصار شتاء، استمرت الحال كذلك سبع سنين لم يتمكن المسلمون خلالها من السيطرة على المدينة.

وقد شعر أمير المؤمنين معاوية أن منيته قد اقتربت فأصدر أوامره للجيوش بالانسحاب خوفاً من أن تتعرض للإبادة، وكذلك فإن الروم شعروا بضرورة التوصل لاتفاق مع المسلمين نتيجة للحصار الطويل الذي تعرضت له عاصمتهم.

أوفد الروم مفاوضاً يقال له يوحنا للتفاوض مع المسلمين لإنهاء حالة الحرب بينهما..
توصل الطرفان أخيراً إلى اتفاق ينص على:
١- انسحاب جيوش المسلمين عن حدود القسطنطينية.
٢- تسود الهدنة بين الطرفين لمدة ثلاثين سنة.[1]

---

[1] العصر الراشدي والأموي.

مدلولات سياسية:

أولاً: نستدل مما سبق أن أمير المؤمنين معاوية شعر أن المسلمين من القوة بحيث يوجه جيشهم إلى القسطنطينية عاصمة الروم وذلك لأنه يدرك أن سقوط عاصمة الروم يعني أن النفوذ الإسلامي امتد على جميع الأراضي الخاضعة للروم، و كان يمثل إصراراً للسيطرة على المدينة فقد استمر الحصار سبع سنوات يحاصرها صيفاً وربيعاً ويجعل الجيش يستريح شتاء.

ثانياً: وإذا كان المسلمون قد امتلكوا إصراراً على اقتحام أسوار المدينة، إلا أن هذا الإصرار كان محكوماً بالظروف السياسية العامة والظروف الداخلية والعسكرية للدولة الإسلامية.. أما عسكرياً فإن موازين القوى كانت معتدلة بين الطرفين فلم يتمكن أي منهما من حسم المعركة لصالحه فالروم عاجزون عن فك الحصار والمسلمون أيضاً عاجزون عن اقتحام المدينة والسيطرة عليها.

أما سياسياً فإن الروم قد أهلكهم الحصار لذلك رغبوا في عقد صلح مع المسلمين وإنهاء حالة العداء بين الطرفين. أما الظروف الداخلية للدولة الإسلامية وهي العنصر الأكثر أهمية في عقد هذا الصلح وهي التي سرَّعت المصالحة.

فقد شعر أمير المؤمنين معاوية بدنو الأجل ومعروف أن استقرار الدولة كان ثمنه الكثير من الدماء حتى استقر الأمر لمعاوية بإجماع الأطراف المتنازعة آنذاك. ومع اقتراب أجله شعر أنه لابد من تحقيق التماسك داخل الدولة فأمر الجيش بالانسحاب من الجبهة لحماية الجبهة الداخلية.

و بالفعل فقد أخذ معاوية البيعة لابنه من بعده وما كان ليأخذ هذه البيعة بمثل هذا الإجماع لو أن الجيش كان منهمكاً في القتال مع الروم. ولربما بدأ الصراع الداخلي من جديد.

ثالثاً: نص الاتفاق على انسحاب المسلمين عن حدود القسطنطينية وفك الحصار عن المدينة مقابل أن تسود الهدنة بين الطرفين لمدة ثلاثين عاماً.

لماذا رضي المسلمون بالهدنة مع الروم ثلاثين عاماً، ورسول الله ﷺ صالح قريشاً في الحديبية عشر سنوات؟.

لا نظن أن أمير المؤمنين معاوية جانب الحق في تحديد الهدنة لمدة ثلاثين سنة ولا نظنه خالف سنة رسول الله ﷺ، لان المبدأ في تحديد مدة الهدنة في الاتفاقين هو مصلحة المسلمين.

فقد ارتأى رسول الله ﷺ من منظور بشري أن عشر سنوات كافية تماماً حتى تتغير موازين القوى في المنطقة لصالح المسلمين فصالح قريش على ذلك. وكذلك فإن معاوية ارتأى مصلحة المسلمين في هدنة طويلة بين طرفي النزاع ولتكن ثلاثين سنةً مثلاً وقد صالح الروم على ذلك.

أما إذا قيل إن معاوية قد خالف سنة رسول الله في تحديد مدة الهدنة فإن ذلك من المستبعد تماماً لان معاوية صحابي جليل وقع هذا الاتفاق بحياة الكثيرين من صحابة رسول الله ﷺ ولم يعترض أحد منهم على ذلك بالرغم من أن الخلافات السياسية كانت سائدةً في تلك الفترة وما كان للصحابة أن يسكتوا عن أمر فيه خلاف سنة رسول الله ﷺ.
وسكوت الصحابة عن هذا الأمر إقرار للاتفاق.

رابعاً: المفاوضات مع ملك الصين

النموذج الأخر للمفاوضات في عهد الدولة الأموية هي تلك التي جرت مع ملك الصين، حيث وصل جيش المسلمين بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي إلى كاشغر في الصين عام ستة وتسعين للهجرة، فأرسل ملك الصين إلى المسلمين طالباً التفاوض معهم.

أرسل المسلمون اثنا عشر مفاوضاً يترأسهم هبيرة بن المشمرج الكلابي وجرت مفاوضات طويلة بين الطرفين. وفي نهاية المفاوضات قال ملك الصين مخاطباً رئيس وفد المسلمين: «قولوا لصاحبكم ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابكم، وإلا بعثت إليكم من يهلككم».

فرد هبيرة: «كيف يكون قليل الأصحاب من أول خَيلِه في بلادك وآخرها في منابت الزيتون. أما تخويفك إيَّانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه أو نخافه وقد حلف صاحبنا أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية».

فقال ملك الصين: «فإنا نُخرجُه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث إليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها».

فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن. فقدموا على قتيبة، فقبل الجزية، وختم الغلمان وردَّهم، ووطئ التراب.[1]

---

[1] العصر الراشدي والأموي .

مدلولات سياسية:

أولاً: النقطة المهمة والحساسة في هذه المفاوضات هي مبدأ الحل الوسط الذي توصل إليه طرفا التفاوض. وقد حاول ملك الصين إنهاء المفاوضات بتهديد واضح للمسلمين «قولوا لصاحبكم ينصرف وإلا بعثت إليكم من يهلككم».

ولكن هذا التهديد كان يستند إلى قوة عسكرية من الممكن أن تكون متكافئة مع المسلمين، ولكنها بالتأكيد لا تتفوق عليها حيث أن ملك الصين لمس إصراراً عند المسلمين على تحقيق أهدافهم فاختار حلاً وسطاً لذلك وافق المسلمون عليه «نبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها».

ثانياً: إذا كان المسلمون قوة عسكرية متفوقة على الصينيين فلماذا رضي المسلمون بالحل الوسط ولم يحسموا الأمرعسكرياً؟.

لاشك أن قتيبة نظر إلى الأمر بشكل استراتيجي فاختار الحل الوسط المعروض عليه، فالجيش الإسلامي بعيد عن مركز الدولة الإسلامية في الشام وهذا يحرم الجيش من الإمدادات العسكرية السريعة التي قد يحتاج إليها الجيش في معاركه مع الجيش الصيني.

وكذلك فقد استولى جيش المسلمين على أراض شاسعة ولما يتمكن الإسلام بعد من قلوب جميع من خضعت أراضيهم للمسلمين.

وهذا يعني أن إمكانية التمرد لدى هؤلاء الناس مازالت واردة في حال انشغال جيش المسلمين في حربه مع الصين. وإذا ما حصل مثل هذا التمرد فسوف يشتت جهود الجيش الإسلامي وسوف يقطع الإمدادات بين مركز الدولة في الشام وبين جيش المسلمين.

ثالثاً: هل يتناقض الحل الوسط الذي توصل إليه المسلمون والصينيون مع مبادئ الدين الإسلامي؟.

بالتأكيد، لا. فان الحل الذي تم التوصل إليه لا يشكل تناقضا مع المبادئ الإسلامية، فان أي جيش إسلامي يخرج للفتح فإنما يضع أمام أعدائه ثلاثة خيارات «الإسلام، الجزية، القتال» والحل الوسط الذي تم التوصل إليه إنما هو دفع الجزية «ونبعث إليه بجزية يرضاها» هذا من حيث الجوهر الفعلي للحل.

أما من حيث القسم الذي أطلقه قتيبة «أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية» فقد تم الوفاء به، فوطئ تراب الصين من غير أن يدخلها حربا وختم أبناء ملوكهم من غير أن يأسر أحداً منهم، وأخذ الجزية عن يد وهم صاغرون..

ويمكن أن نفهم لهجة التشدد التي اعتمدها قتيبة ومبعوثه إلى ملك الصين هبيرة في حديثه مع ملك الصين، يمكن أن نفهم ذلك كردة فعل طبيعية على تهديداته واستهزائه بالمسلمين. «قولوا لصاحبكم ينصرف فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم».

وجاء رد المسلمين بنفس الطريقة ويعكس قوة إيمانية أولا واستعراضا للقوة العسكرية ثانيا، واستهزاءً بتهديدات ملك الصين ثالثاً. «كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه أو نخافه وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية..».

خامساً: حصن سمالا

استمرت الحرب سجالاً بين المسلمين والروم في عهد الدولة الأموية وكذلك عندما قمت الدولة العباسية فإنها استشعرت الخطر الخارجي المتمثل بالتهديدات الرومانية للثغور الشمالية للدولة الإسلامية، وما إن استقرت الأوضاع الداخلية لبني العباس حتى وجه الخلفاء العباسيون جيوشهم نحو بلاد الروم.

ففي عام ١٥٩ هـ قاد الخليفة المهدي جيش المسلمين إلى (البردان) ومنها وجَّه جيشاً لاحتلال أنقرة بقيادة عنه العباس بن علي بن عبد الله، ولكن هذا الجيش لم يستطع السيطرة على أنقرة.

وفي عام ١٦١ هـ تحرك جيشٌ آخر للمسلمين بقيادة ثمامة بن الوليد إلى دابق حيث حقق المسلمون انتصارات سريعة بالرغم من التعداد الكبير لجيش الروم وتابعوا زحفهم إلى مرعش ولم يحالفهم الحظ حيث استطاع الروم إلحاق الهزيمة بالمسلمين.

ولم يكتف الروم بذلك بل طمعوا بهذا النصر فأغاروا على الحدود الإسلامية عام ١٦٢ هـ. رداً على ذلك أغار المسلمون بقيادة الحسن بن قحطبة على مواقع الروم ولكنه لم يحرز النصر عليهم إذ أنهم أعادوا السيطرة على مرعش. وعرفت هذه الغارات باسم المصايف والمشاتي.

شعر الخليفة المهدي أن الروم مصممون على مواصلة الحرب ضد المسلمين فجهز جيشاً عام ١٦٣ هـ بقيادته وقد ضم هذا الجيش مائة وخمسين ألف مقاتل وجعل مدينة حلب مقراً لقيادة الجيوش، ومن هناك بعث جيشاً بقيادة أخيه هارون الرشيد فحاصر حصن سمالا الرومي مدة أربعين يوماً.

استسلم أهل الحصن للمسلمين على الشروط التالية:
يضمن المسلمون الأمان لأهل الحصن فلا يقتل أحد منهم، ولا يجلونهم عن حصنهم ولا يفرقوا بينهم، ويدفع الروم الغرامة الحربية للمسلمين مقابل إطلاق سراح أسراهم.

وافق هارون الرشيد على هذا الصلح وأحسن عهدهم وفك الحصار عن الحصن. ما لبث الروم أن نقضوا عهد المسلمين وأغاروا على بلاد المسلين في ١٦٤ هـ فأوكل الخليفة المهدي أمر تأديبهم لأخيه هارون الرشيد والحق به الربيع بن يونس فجهزا جيشاً قوامه مائة ألف مقاتل ووصل إلى شواطئ البوسفور وهزم الروم عسكرياً مما دفع أيريني الوصية على عرش بيزنطة وهي زوجة ليو الرابع ووالدة قسطنطين السادس لتوقيع معاهدة جديدة مع المسلمين:

١ـ يدفع الروم تسعين ألف دينار سنوياً، وتدفع على دفعتين في نيسان وحزيران من كل عام.
٢ـ تقام الأسواق والأدلاء في طريق عودة المسلمين إلى بلادهم.
٣ـ يتم إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين لدى الروم.
٤ـ تستمر الهدنة لمدة ثلاث سنين.[1]

مدلولات سياسية:

أولاً : نلاحظ بوضوح أن الحرب استمرت سجالاً بين الروم والمسلمين وأن أياً من الطرفين لم يستطع حسم المعارك عسكرياً لصالحه.

ففي غضون خمس سنوات تم عقد اتفاقين بينهما، ولان موازين القوى السائدة كانت متوازية فإن هذه الاتفاقيات لم تدم طويلاً وسرعان ما يتم نقضها..

---

(1) الخلافة العباسية : العصر الأول د . صلاح المدني ١٩٦٢ دمشق .

ومن الملاحظ أي أيضاً أن المسلمين يتمتعون بتفوق عسكري على الروم إلا أن هذا التفوق ليس حاسماً، يتجلى ذلك من خلال الطلب الرومي المتكرر للصلح مع المسلمين وكذلك من خلال قيام الروم بنقض الصلح في كل مرة كلما استشعروا في أنفسهم القوة.

لم تكن شروط الصلح مجحفة بحق الروم وإنما حفظت لهم كرامتهم بالرغم من أنها كانت تصب في المصلحة الإسلامية.

ثانياً: لم يحدد الاتفاق الأول مدة للصلح وإنما كان مفتوحاً إلى أجل غير مسمى، فقد تضمن الاتفاق استسلام الروم مقابل ضمان حياتهم وكذلك دفع الغرامة مقابل إطلاق سراح الأسرى الروم. أما الاتفاق الثاني فقد حدد المدة الزمنية بثلاث سنوات وليس عشراً كما جاء في صلح الحديبية.

إن هذا التحديد جاء وفق مصالح آنية للمسلمين ولا تتعارض مع هدفهم الاستراتيجي في نشر الدعوة الإسلامية.

سادساً: الاتفاق مع الفرنجة:

تسلم هارون الرشيد الخلافة عام ١٧٠ للهجرة وكان يرغب في القضاء على الدولة الأموية القائمة في الأندلس أو تحجيم دورها في العالم، لذلك سعى للاتصال مع الفرنجة وعقد الاتفاق معهم.

وبالفعل فقد استطاع هارون الرشيد التوصل إلى اتفاق مع إمبراطور الفرنجة شارلمان عام ١٨٤ هجرية.و ينص هذا الاتفاق على:

١ـ يقوم المسلمون بتسليم مفاتيح الأماكن المقدسة في القدس الشريف إلى شارلمان.

٢ـ يقوم الفرنجة بإرسال بعثات تعليمية إلى الشرق لتلقي العلوم هناك.

٣ـ تسهيل مهمة الحجاج الأوروبيين إلى الأماكن المقدسة في فلسطين.([1])

مدلولات سياسية:

أولاً: لابد من إلقاء الضوء على القوى السياسية الفاعلة في العالم آنذاك عند دراسة هذا الاتفاق.

كان في العالم دولتان إسلاميتان: أما الدولة الأولى فهي الخلافة العباسية وعاصمة ملكهم بغداد أما الخلافة الثانية فهي الخلافة الأموية في الأندلس.

وكذلك كان في العالم دولتان مسيحيتان هما: دولة الفرنجة في فرنسا ويتزعمها الإمبراطور شارلمان وهي بعيدة عن حدود الدولة العباسية ولكنها على تماس مع الدولة الأموية الأندلسية.

([1]) الخلافة العباسية العصر الأول

أما الدولة الثانية هي بيزنطة في روما ويتزعمها نقفور وهي على تماس وصراع مع الدولة العباسية وبعيدة عن حدود الدولة الأندلسية.

وقد ساد الصراع بين هذه الأطراف، فقد كانت دولة الفرنجة على عداء مع الأمويين في الأندلس بسبب السيطرة الإسلامية على الأندلس أساساً وبسبب الصراعات الحدودية ثانياً.

وساد النزاع بين الفرنجة والروم على قيادة العالم المسيحي آنذاك. وكذلك ساد الصراع بين الدولة العباسية والدولة الأندلسية على قيادة العالم الإسلامي وأحقية كل منهما في الخلافة. وساد العداء بين الدولة العباسية والبيزنطية بسبب الخلافات على الحدود والثغور الأمامية لكل منهما.

نتيجة لهذا الصراع السياسي والدموي نشأت تحالفات بين أطراف النزاع المختلفة، فقد اتفق العباسيون والفرنجة في مواجهة الروم والأمويين، وكان للعباسيين والفرنجة مصالح مشتركة في هذا الاتفاق.

فالفرنجة يهددون بيزنطة والأمويين وهما أعداء الدولة العباسية. والعباسيون يهددون بيزنطة والأمويين وهما أعداء الفرنجة. وهنا التقت مصالح الطرفين واتفقا.([1])

ثانياً: بالرغم من أن هارون الرشيد أعطى مفاتيح الأماكن المقدسة المسيحية في القدس للفرنجة وسهّل لهم طريق الحج وهذا يعتبر نظرياً انتقاصاً لسيادة الدولة الإسلامية على جزء من أراضيها إلا أن الرشيد كان يرمي من وراء ذلك إلى زعزعة دور بيزنطة في العالم المسيحي وإلغاء دورها في رعاية الديانة المسيحية مما يضعف من تأثيرها على المسيحيين ويعزز تأثير و دور الفرنجة في الخلافات الداخلية الدائرة بينهما.

([1]) الخلافة العباسية العصر الأول

وكذلك فإن هذا الاتفاق لا يعطي المسيحيين أي نفوذ في الدولة الإسلامية آنـذاك لأن الدولة الإسلامية كانت من القوة بحيث تقمع أي محاولات لمد النفوذ المسيحي إلى فلسطين.

ولكن هذا الاتفاق اتخـذ حجـة لمـد النفـوذ الأوروبـي في فلسـطين فيمـا بعـد وعندمـا أصبحت الدولة الإسلامية في مرحلة الضعف..

سابعاً: إلى نقفور كلب الروم

كان أمير المؤمنين هارون الرشيد يغزو الروم في عهد أبيه، وأخيه ولما استقر الحكم له أنشأ ولاية أسماها ولاية العواصم عام ١٧٣ هـ وتضم كل الثغور المواجهة للروم.

و قد فضَّلت الوصية على عرش روما أيريني أن تهادن الرشيد خوفاً من وقوع دولتها بين نار المسلمين والفرنجة. ووافقت على الهدنة مقابل دفع الجزية سنوياً. استمر دفع الجزية حتى عام ١٨٧ هـ حيث خلعت الوصية أيريني وتولى أمور الروم نقفور.

عمل نقفور على تسوية مشاكله الحدودية مع شارلمان إمبراطور الفرنجة، ثم نقض الهدنة مع المسلمين ومنع دفع الجزية السنوية، وأرسل إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد رسالة جاء فيها:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب.

أما بعد:

فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها. ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموال وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فرد هارون الرشيد على الرسالة برسالة أخرى، جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

«من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.

قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه. والسلام».

ثم قاد الرشيد جيشاً فاحتل هرقلة، فطلب نقفور الصلح على أن يؤدي الجزية السنوية. وما إن غادر جيش المسلمين عائداً إلى بغداد حتى نقض نقفور الصلح، فعاد جيش المسلمين على فوره وقاتل الروم وهزمهم.

وفي عام ١٨٩ هـ حصلت حرب أخرى بين الطرفين أسفرت عن اتفاق لتبادل الأسرى، فلم يبق في بلاد الروم مسلم واحد.

ثم إن المسلمين غزوا هرقلة عام ١٩٠ هـ وفتحوها عنوة وسبوا أهلها، فاضطر نقفور إلى طلب الصلح ثانية ودفع الجزية للمسلمين.

واشترط عليهم ألا يخربوا حصون ذي الكلاع، صملة سنان، فوافق المسلمون واشترطوا بدورهم على الروم «عدم بناء مدينة هرقلة من جديد ودفع ٣٠٠ ألف دينار للمسلمين». وتم الصلح بين الطرفين، إلى حين.[1]

مدلولات سياسية:

يعكس الصلح مع نقفور ما تمثله القوة العسكرية على الساحة السياسية من اتفاقيات ومعاهدات. فقد قام الإمبراطور الروماني نقفور ببناء الجبهة الداخلية للدولة الرومانية، وتأمين حدوده الغربية مع أعدائه الفرنجة، ونقض معاهدة الصلح مع المسلمين عدة مرات محاولاً تغيير موازين القوى في المنطقة لصالحه.

إلا أن المسلمين كانوا من القوة بحيث فرضوا شروطهم على الروم في كل مرة كانوا ينقضون الصلح فيه.

---

(1) العصر العباسي الأول .

ثامناً: فتح عمورية

ساد الهدوء على جبهة القتال بين الروم والمسلمين في بداية عهد المعتصم، ولم يكن هذا الهدوء نتيجة لصلح متبادل وإنما نتيجة لانشغال الطرفين بتصفية المشاكل الداخلية، فالمعتصم كان يحارب الخرمية والزط، وإمبراطور الروم تيوفيل كان منهمكاً في حروبه في صقلية.

وما إن انتصر تيوفيل على خصومه عام ٨٣٧ م حتى بادر بالاتصال مع بابك الخرمي الخصم الرئيسي للمعتصم يحرضه على الثورة. ثم جمع جيشاً قوامه مائة ألف مقاتل من البلغار والصقالبة وأنصار بابك الخرمي من الفرس والأكراد واقتحموا حصن زبطرة وأحرقوا المدينة وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها.

وتابع جيش الروم هجومه فاحتل مدينتا رمادا وسميساط ثم عاد إلى بلاده خوفاً من هجوم عربي عليه. استقبل المعتصم جموع الناس الهاربين من بطش الروم واستمع لمأساتهم وقرر أن يبعث جيشاً بقيادة عجيف بن عنبسة لمواجهة الروم وتفرغ هو لقتال بابك الخرمي، وقد حقق إنتصارين في آن معاً.

أما الأول فقد استطاع عجيف بن عنبسة أن يرد جموع الهاربين من وجه الروم إلى مدنهم. أما الثاني فقد استطاع الخليفة المعتصم أن يلقي القبض على بابك الخرمي وأعدمه صلباً. وما إن قضى المعتصم على الفتنة الداخلية حتى فكّر بالثأر من الروم عام ٨٣٨ م.

سأل المعتصم: «أي حصون الروم أمنع وأقوى؟». فقيل له: «عمورية، فإنه لم يقصدها مسلم منذ ظهور الإسلام وهي عين المسيحية وأساسها وهي عند الروم أشهر من القسطنطينية».

ومشى المعتصم بجيش قوامه مائتي ألف مقاتل مسلحين بما لم يتجهز جيش إسلامي بمثله قط. ومصادر أخرى تقول أن تعداد الجيش بلغ خمسمائة ألف مقاتل. عند سبسطية انقسم جيش المسلمين إلى قسمين، الأول بقيادة الأفشين وتوجه إلى أنقرة أما الثاني وهو بقيادة أشناس فقد تابع مسيره نحو عمورية.

اصطدم جيش الأفشين مع جيش الروم في دزمون قرب أنقرة وهزم جيشهم فهرب الإمبراطور عائداً إلى القسطنطينية، ودخل المسلمون إلى أنقرة ودمروها.

وتوجه الجيش بعد ذلك إلى عمورية فتم دخول المسلمين إلى عمورية بعد مقاومة شديدة من أهلها، وقد استعان المعتصم بأسير عربي لدى الروم كان قد تنصر، فقد دل هذا الأسير على نقاط الضعف في سور عمورية فافتتحها المسلمون في ١٣ آب ٨٣٨ م وحمل المسلمون معهم غنائم كثيرة.

خلال الحصار الإسلامي لحصون عمورية حاول الإمبراطور تيوفيل إنزال قوات بحرية في أنطاكية لإرباك المسلمين فنهبت أموال التجار وهربت.

ثم حاول إمبراطور الروم إرضاء المعتصم فبعث إليه بالهدايا والأموال وبرسالة يعتذر فيها عن مذابح زبطرة وعرض عليه أن يقوم الروم ببناء زبطرة من جديد ويرجعون السبايا إلى ديارهم.

و لكن المعتصم رفض استقبال رسول الروم وأصر على فتح عمورية. ثم قصد جيش المعتصم القسطنطينية لاقتحامها، ولكنه اضطر للتراجع وسحب الجيش خوفاً من فتنة داخلية أعد لها ابن أخيه العباس بن المأمون.([1])

([1]) تاريخ الخلافة العباسية، العصر الأول، ص ١٧٣.

مدلولات سياسية:

أولاً: إن اختيار الهدف الحربي يعتبر من أهم ميزات فتح عمورية، واختيار الهدف ليس له مدلول عسكري وحسب بل له دلائل سياسية ومعنوية أيضاً، فقد كان للهجوم الرومي على زبطرة تأثيراً معنوياً عند المسلمين لأن زبطرة هي مسقط رأس الخليفة المعتصم وهي حصن إسلامي مهم في مواجهة الروم.

و الهجوم على هذا الحصن بالذات يعتبر تحدياً شخصياً للخليفة المعتصم لذلك عندما فكر المعتصم بالثأر من الروم سأل عن أمنع حصون الروم وأقواها، فقيل له إن عمورية هي الحصن المطلوب، فهي الأمنع والأقوى من الناحية العسكرية.

وكذلك فهي من الحصون التي لم يصل إليها المسلمون قبلاً واقتحام هذا الحصن سوف يعطي قوة معنوية للمسلمين وكذلك فإن اقتحام هذا الحصن سوف ينعكس سلبياً على الناحية المعنوية لدى الروم إذ أن هذا الحصن هو «عين المسيحية وأساسها وهي عند الروم أشهر من القسطنطينية» وكذلك فإن اقتحام الحصن أخيراً يحقق الثأر المطلوب عند الخليفة المعتصم لان هذا الحصن هو مسقط رأس الأسرة الحاكمة في روما وتشريد أهله يعني إصابة الإمبراطور بنكبة عائلية كبيرة. بذلك تحقق هذه الحرب الأهداف العسكرية والسياسية والمعنوية المطلوبة.

ثانياً: إن الرد العسكري الإسلامي كان يستند أساساً إلى القوة العسكرية للدولة الإسلامية فقد استطاع المعتصم أن يجهز جيشاً قوامه مائتي ألف مقاتل وهو ضعف القوة العسكرية البيزنطية ولولا هذه القوة العسكرية لما استطاع المسلمون تحقيق هذا الانتصار بالرغم من امتلاكهم القوة الإيمانية والإرادة القتالية.

فالإيمان ضروري جداً في المعركة والإرادة القتالية عنصر مهم في القتال ولكن الاكتفاء بهما دون الإعداد العسكري لن يحقق النصر. فالأخذ بالأسباب وإعداد القوة ورباط الخيل هي من الإيمان أيضاً.

ثالثاً: شهدت موقعة عمورية حرباً تكتيكية، فقد كان المسلمون قد أحكموا حصارهم لعمورية وشددوا ضرباتهم بهدف اقتحام المدينة، في هذه الأثناء استخدم الإمبراطور الروماني تكتيكاً جديداً يعرف باسم الحرب التحريكية لذلك فقد بعث حملة عسكرية بحرية إلى أنطاكية عاثت فيها الفساد ثم انسحب منها وبعث برسالة إلى المعتصم لتحريك المفاوضات السياسية بين الطرفين.

وتضمنت هذه الرسالة اعتذاراً عن المجازر التي ارتكبها الروم في زبطرة ولعله وصفها بالإرهابية وقدم الهدايا للمعتصم تعبيراً عن اعتذاره عن الإهانة الشخصية التي لحقت به من جراء استباحة زبطرة مسقط راس المعتصم، وكذلك قدم عرضاً سياسياً لوقف القتال تضمَّن إعادة إعمار زبطرة على نفقة الروم وإطلاق سراح المعتقلين المقاتلين وإرجاع السبايا إلى أهليهم، كل ذلك مقابل فك الحصار عن عمورية وانسحاب جيش المسلمين.

غير أن أمير المؤمنين المعتصم بالله رأى أن المسلمين يمتلكون من القوة ما يستطيعون به أن يحققوا أهدافهم كاملةً من دون أي صلح مع الروم بل واقتحام عمورية إضافة إلى ذلك، ومن هذا المنطلق رفض المعتصم استقبال مبعوث بيزنطة.

الفصل الرابع

المفاوضات الإسلامية مع الصليبين

أولاً: حطين

تمكن الصليبيون الإفرنج من تأسيس ممالكهم الصليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس. وقد شملت مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك الصليبي بلدوين عام ١١٠٠ -.١١٢٨ م كل الأرض الفلسطينية باستثناء الساحل الفلسطيني من عسقلان شمالاً إلى غزة جنوباً.

و إلى جانب هذه الممالك الصليبية كانت الدويلات الإسلامية تتمزق في صراعات داخلية وتعاني من انقسامات داخلية مستمرة، وكانت الدولة الأيوبية والتي أسسها صلاح الدين الأيوبي إحدى هذه الدويلات، ولكنها كانت الأقوى بين جيرانها حيث أنها كانت تشمل مصر والشام، وقد أخذ صلاح الدين الأيوبي على عاتقه العمل على مقارعة الممالك المسيحية.

انتصر جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين في ٤-٧-١١٨٧ م، واستطاعوا تحرير القدس بعد حصار دام أسبوعين في ٢٠-١٠-١١٨٧م. وكانت مدينة عكا الفلسطينية من ضمن المدن التي استطاع جيش صلاح الدين الأيوبي انتزاعها من الصليبيين.

و لكنها تعرضت للحصار الشديد بعد الحملة الصليبية الثالثة التي قادها ريتشارد قلب الأسد عام ١١٨٩ م، وقد اجتمع صلاح الدين مع قادة جيشه في ١٢-١٠-١١٨٩ م

وناقش معهم إمكانية الصمود في المدينة أو إخلائها فقررت الأغلبية إخلاء المدينة، والتزم صلاح الدين بهذا القرار بالرغم من أنه من الأقلية الرافضة لإخلائها.

دام الحصار عامين سقطت بعده المدينة عام ١١٩١ م وارتكب فيها الصليبيون المجازر ضد المدنيين، ثم امتد النفوذ الصليبي إلى مدن حيفا وقيسارية وأرسوف وعسقلان.

اجتمع صلاح الدين الأيوبي مع قادة جنده في ١٠-٩-١١٩١ م لمناقشة موضوع تخريب مدينة عسقلان قبل إخلائها وذلك لمنع الصليبيين من الاستفادة منها فكان رأي صلاح الدين الأيوبي تحصين المدينة والدفاع عنها وعدم مغادرتها بينما رأت الأغلبية أن يتم تخريب المدينة والانسحاب منها حتى لا يحل بأهلها ما حل بمدينة عكا. وبالفعل أخلى المسلمون عسقلان ودخلها الصليبيون.([1])

و وصلت الجيوش الصليبية إلى القدس ولكنها لم تستطع اقتحام المدينة فاضطروا لعقد صلح مع المسلمين، عرف باسم صلح الرملة، والذي تم في ٢-١-١١٩٢ م الموافق ٥٨٨هـ. وقد تضمن هذا الصلح البنود التالية:

١- أن يحتفظ الصليبيون بالمنطقة الواقعة بين صور ويافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، على أن تكون اللد والرملة مناصفة بين العرب والإفرنج.
٢- يحتفظ المسلمون بالمناطق الواقعة جنوب عسقلان.
٣- تظل القدس بيد المسلمين على أن يسمح للإفرنج بالحج إلى الأماكن المقدسة مجاناً.
٤- مدة الصلح ثلاث سنوات وثمانية أشهر.
٥- ترك الطرفان الخيار لإنطاكية وطرابلس بدخول هذا الصلح([2]).

([1]) فلسطين أرض الحضارات : د . شوقي شعث .

([2]) الموجز في تاريخ الدولة الإسلامية وعهودها في فلسطين، مصطفى مراد الدباغ ١٩٨١ م.

ثانياً: الحملة الصليبية الخامسة

استمرت الحملات الصليبية بالتوجه إلى المنطقة بهدف إعادة مملكة بيت المقدس الصليبية واسترجاع ما كانت قد خسرته على يد صلاح الدين الأيوبي. فقد وصلت هذه الحملة عام ١٢١٧ م واستهدفت احتلال مصر للقضاء على مراكز المقاومة الإسلامية واسترجاع القدس.

و قد ترأس هذه الحملة قائدان صليبيان هما: بيلا جيوس، ممثلاً عن البابا. والقائد الفرنسي حنا بريان، ممثلاً لفرنسا.

في عام ١٢١٨ م أحكم الصليبيون حصارهم لمدينة دمياط التي كان فيها الملك الكامل ابن الملك العادل، ودافع عنها غير انه هزم في آب ١٢١٨ م.

وكان الكامل قد قدم عرضاً سياسياً لفك الحصار عن دمياط المحاصرة، تمثل مشروع الاتفاق بالموافقة على:

١- انسحاب المسلمين من بيت المقدس وتسليمه للصليبيين.
٢- إرجاع مملكة بيت المقدس كما كانت عليه قبل قضاء صلاح الدين الأيوبي عليها.
٣- جلاء الصليبيين من دمياط والشواطئ المصرية.

اختلف قائدا الحملة الصليبية بالرأي حول هذا المشروع السياسي، فقد وافق عليه القائد الفرنسي حنا بريان بينما رفضه ممثل البابا بيلا جيوس بدعم من الجمهوريات الإيطالية التي كانت تطمع باحتلال مصر. وكانت النتيجة أن رفض العرض المقدم واستمر القتال حتى سقطت دمياط بيد الصليبيين ثم غادر الكامل القاهرة في شباط ١٢١٩ م ليتسلّم الحكم في العاصمة دمشق تعد وفاة أبيه الملك العادل.

و بعد أن تسلم الكامل السلطة جهّز جيشاً إسلامياً وبدأ بالزحف في تموز ١٢٢١ م فالتقى الجيشان الإسلامي والصليبي في المنصورة. استخدم المسلمون الحرب الاقتصادية ضد الصليبيين مستغلين بذلك فيضان نهر النيل فقطعوا الجسور والسدود أمام الصليبيين حتى أحاطت بهم مياه الفيضانات فانحصر الصليبيون بالجيش الإسلامي من جهة وبمياه البحر من جهة أخرى.

استغل الملك الكامل حالة الحصار هذه وقدَّم مشروعاً سياسياً جديداً يتمثل بالاتفاق على هدنة لمدة ثمان سنوات تعتبر باطلة إذا وصلت أي إمدادات صليبية إلى المنطقة. وافق الصليبيون على هذه الهدنة. أثناء التوقيع على الهدنة وصلت حملة صليبية جديدة بقيادة ملك ألمانية فريدريك الثاني فانقسم الصليبيون إلى فريقين، الأول طالب باحترام الهدنة والآخر طالب بنقض الهدنة. وفي النهاية اتفق الطرفان على احترام الهدنة.

جاء الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني على رأس الحملة الصليبية مطالباً بإرث زوجته في مملكة القدس، ولكن هذه الحملة تأخرت عن الزحف لحو القدس بسبب الهدنة الموقعة مع المسلمين ١٢٢١ م لذلك قام البابا بحرمانه من حقوقه الكنسية عقوبة على هذا التأخير..

وانطلقت الحملة في ١٢٢٨ م في وقت اشتدَّ فيه الصراع بين أبناء الملك العادل، مما دفع ملك مصر محمد الكامل لطلب المساعدة من الملك فريدريك الثاني ضد أخيه ملك الشام المعظم عيسى وقد أرسل مندوبه شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف يحمل تعهداً أن يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين الأيوبي بالساحل الفلسطيني، مقابل دعمه ضد أخيه المعظم عيسى، وافق فريدريك على اقتراح الكامل غير أنه طلب من وفده إلى مصر أن يعرج على دمشق وطلب من ملكها المعظم أن يتنازل عن بيت المقدس.

فردَّ المعظم: «قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، وما عندي سوى السيف».

وما لبث المعظم أن توفي فخلفه ابنه داوود وقد كان منهمكاً باللهو واللعب مما أتاح لعمه الكامل أن يتدخل في شؤونه الداخلية فاخذ منه المنطقة الجنوبية من الشام بما فيها القدس وترك له دمشق والكرك والمناطق الثائرة.

و في شباط ١٢٢٩ م عقد الملك الكامل اتفاقاً مع فريدريك الثاني ينص على:

١- تسليم بيت المقدس للصليبيين بشرط عدم إقامة أي حصن أو قلاع صليبية فيها.

٢- ضم طريق الحج وبيت لحم والناصرة إلى مدينتا عكا ويافا الخاضعتين للصليبيين.

٣- يقتصر الوجود الإسلامي في القدس على الحرم القدسي الشريف حيث يسمح لهم بإقامة الشعائر الدينية من دون حمل السلاح.

٤- إطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين الذين أسروا خلال حملة فريدريك.

٥- يتحالف الكامل مع فريدريك ضد سائر الصليبيين أعداء الكامل حتى وكانوا من المسيحيين الفرنجة.

٦- تعهد فريدريك بعدم وصول إمدادات صليبية لإنطاكية وطرابلس وغيرهما في بلاد الشام.

٧- مدة الصلح بين الطرفين عشر سنوات اعتباراً من٦٢٦ هـ الموافق ١٢٢٩ م.

تعرض هذا الاتفاق للاعتراض من قبل بعض الأطراف المسيحية والإسلامية، أما المسيحيون فقد قالوا إن فريدريك لم يسترد الكثير من مناطق مملكة بيت المقدس، واعترضوا كذلك على شرط المسلمين إيقاف الإمدادات عن أنطاكية وطرابلس تمهيداً للقضاء عليها.

أما المسلمون فقد اتهموا الكامل بالتساهل كثيراً بحقوق المسلمين. وفي آذار ١٢٢٩م تم تتويج فريدريك ملكاً على القدس في ظل رفض رجال الكنيسة القيام بالتتويج بسبب الحرمان الكنسي للملك فريدريك.

وفي وقت لاحق استطاع ملك دمشق داوود بن عيسى استعادة القدس من الصليبيين.

ولكن الصراع استمر بين أبناء الملك العادل وخاصة بعد أن تـولى الملـك الصـالح نجـم الدين أيوب الحكم في مصر بعد عزل أخيه، مما دفع ملك دمشق وفلسطين الشرقية (الأردن) إلى الاتفاق مع الصليبيين على مقاتلة ملك مصر نجم الدين أيوب مقابل التنازل لهم عن القدس وطبرية وعسقلان وبالفعل فقد تنازلا عن هذه الحصون فوراً للصليبيين.

استعان الملك الصـالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية (وهم جنود أتراك مسلمون، كان جنكيز خان قد دمَّر دولتهم فهربوا نحو الشام ومصر) استعان بهم الملك الصـالح لمحاربة الصليبيين وأبناء عمومته ملكا دمشق والأردن، فحرر طبرية ثم نابلس ثم بيت المقدس في ١١-٧-١٢٤٤م ٦٤٢ هـ وكذلك حرر عسقلان، والحصر وجود الصليبيين في يافا. ولم تخضع القدس بعد ذلك للصليبيين([1]).

([1]) تاريخ الخلافة العباسية، العصر الثاني صلاح المدني.
والموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين
مصطفى الدباغ

ثالثاً: الحملة الصليبية السابعة

حقق الملك نجم الدين أيوب وحدة مصر والشامعام ١٢٤٧ م فأصبح قوة لا يستهان بها في المنطقة، لذلك كان من السهل عليه امتصاص الحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك لويس التاسع عام ١٢٤٩ م.

فقد نزلت هذه الحملة في دمياط في كانون الأول من هذا العام، ولكن لويس التاسع وقع أسيراً لدى المسلمين مما دفع الصليبيين إلى عقد معاهدة مع المسلمين تنص على:

١- جلاء الصليبيين عن دمياط.

٢- دفع مبلغ ٨٠ ألف قطعة ذهبية فدية للملك الأسير على أن يدفع نصفها مقدماً.

رابعاً: الظاهر بيبرس:

قضى المغول على الخلافة العباسية في بغداد عام٦٥٥ هـ الموافق ١٢٥٨ م واحتلت جيوشهم بغداد والشام وغزة والخليل والسلط، ثم أرسل ملكهم هولاكو إلى الملك قطز يطالبه بالاستسلام وتسليم مصر غير أن قطز قتل رسل هولاكو وأعدَّ جيشاً بقيادة الظاهر بيبرس وأمره بالتوجه إلى الشام.

حرر الظاهر بيبرس غزة، ثم تبعه الملك قطز على رأس حملة إسلامية أخرى تضم الناجين من مذابح المغول، وسار قطز وبيبرس في جيش واحد التقى جيش المغول في عين جالوت قرب بيسان في فلسطين، حيث حقق المسلمون انتصاراً ساحقاً على المغول.

وكان قطز أثناء المعارك يصرخ محرضاً جنوده: «واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه، اللهم انصر عبدك قطز على المغول». ولما حقق الله النصر للمسلمين على يديه نزل عن فرسه ومرَّغ وجهه بالتراب وصلى شكراً لله تعالى.

ثم تابع المسلمون زحفهم فحرروا طبرية ودمشق وسائر بلاد الشام، ثم إن قطز قتل في ٦٨٥ هـ الموافق ١٢٦٠ م وتولى مكانه الظاهر بيبرس.

أدرك بيبرس أن دولته تتعرض للخطر الخارجي أولاً من المغول الذين يتربصون للثأر من المسلمين ومن قبل الصليبيين المنتشرين على ساحل فلسطين وسورية ثانياً.

و للخطر الداخلي من قبل الحشاشين المنتشرين في سورية ومن قبل المماليك أنفسهم وقد بدؤوا يشعلون الفتنة ضده. فكانت أول أعماله مبايعة المستنصر العباسي كأول خليفة عباسي في القاهرة، ثم بايع من بعد استشهاده أخاه الحاكم بأمر الله عام ٦٦١ هـ الموافق ١٢٦٤ م وأصبح هو نائباً للخليفة يستمد شرعيته من الخليفة العباسي.

ثم إنه ركز كل جهوده للقضاء على العدو الأخطر بين أعدائه وهم الصليبيون المنتشرون على سواحل فلسطين والشام مستفيداً من الخلافات القوية التي نشبت في صفوفهم.

طالب بيبرس الإمارات الصليبية أن تعقد معه صلحاً، وإنما يريد بذلك أن يأمن شرهم، فوافقت بعض الإمارات الضعيفة على ذلك وعقد معه الصلح في خريف ١٢٦١م، بينما رفضته إمارات أخرى منها إمارة إنطاكية التي تتلقى الدعم من الدولة النورماندية جنوب إيطالية والتي أيدت الغزو المغولي لبلاد المسلمين.

وتحرك كذلك سياسياً لتأمين الاستقرار الداخلي فعقد تحالفاً مع البيزنطيين ضد الصليبيين. وعقد اتفاقيات اقتصادية مع أسبانية وإيطالية.

ثم إنه جهز جيشاً قوياً في دمشق لمحاربة الصليبيين، شعر الصليبيون بجدية الموفق فاضطر بعضهم لقبول الصلح وفق الشروط الإسلامية وكان من بين هؤلاء أمير يافا وأمراء فرسان الداوية والاستبارية، وقد عقد الصلح في جبل طابور بالناصرة.

سيطر بيبرس على قيسارية وعسقلان وأرسوف وصفد عسكرياً عام ١٢٦٥ م، ثم وجه جيشه إلى أنطاكية ١٢٦٨ م فسارع أمراء جوار أنطاكية إلى طلب الصلح حسب الشروط التي يرغب بها بيبرس. ولكن بيبرس أصرَّ على السيطرة على أنطاكية عسكرياً.

أرسل ملك أرمينية الصليبي إلى بيبرس عارضاً عليه تسليم بلاده مقابل الحصول على الهدنة، ووافق بيبرس على ذلك.

أما أمير أنطاكية بوهيموند والذي هرب إلى طرابلس وأقام إمارته فيها فقد أرسل هو الآخر إلى بيبرس يعرض عليه الهدنة، فوافق على ذلك وجرت المفاوضات بين الطرفين وشارك بيبرس في هذه المفاوضات متنكراً بصفة خادم وذلك ليقف بنفسه على الاستعدادات العسكرية الصليبية.

أما إمارة عكا، وهي آخر ما تبقى من مملكة بيت المقدس الصليبية فقد عرضت الصلح مع المسلمين فاشترط بيبرس أن تكون البلاد الخاضعة لإمارة عكا مناصفة بين المسلمين وملك بيت المقدس، ولكن الصليبيين رفضوا ذلك وأخفقت المفاوضات.

حاصر المسلمون إمارة طرابلس الصليبية واستولوا على حصن الأكراد وقضوا على الاستبارية واستولوا على قلعتي المرقب وطرطوس بعد أن وافق فرسانها الداوية على الصلح مع المسلمين وأن تكون بلادهم مناصفة مع المسلمين.

في هذه الأثناء وصلت الحملة الصليبية الثامنة إلى المنطقة غير أنها استهدفت الساحل التونسي، بينما انشقت الفرقة الإنكليزية عن الحملة وتوجهت إلى عكا في فلسطين مما اضطر بيبرس لمصالحة إمارتي طرابلس وبيت المقدس.

ثم إن بيبرس حاول بين عامي ١٢٧٥ -١٢٧٧ م السيطرة على قبرص التابعة لمملكة بيت المقدس وذلك بهدف قطع أي إمدادات صليبية قادمة من أوروبة، غير أنه توفي عام ٦٧٦ هـ الموافق ١٢٧٧ م قبل أن يحقق ذلك.

و قد ظلت طرابلس وعكا خاضعتين للنفوذ الصليبي حتى كان عهد الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذي فتح عكا في ٢٨-٥-١٢٩١ - ٦٩٣ هـ.([1])

المدلولات السياسية للمفاوضات مع الصليبيين:

أولاً: عرف القائد صلاح الدين الأيوبي بالحنكة السياسية والعسكرية، ولكن ذلك لا يعني أنه كان مصاباً بالغرور والعنجهية والدكتاتورية.

([1]) تاريخ الخلافة العباسية، العصر الثاني صلاح المدني.

والموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين

مصطفى الدباغ

و هنا يجب أن نلاحظ أن المسلمين حققوا انتصاراً عسكرياً كبيراً ضد الصليبيين في حطين ٤-٧-١١٨٩ م واستطاعوا بفضل هذا الانتصار استعادة المدن الفلسطينية.

و أمام الإمدادات العسكرية للصليبيين رأت قيادة الجيوش الإسلامية أنها لا تستطيع حماية جميع الأراضي التي حررها صلاح الدين الأيوبي، لذلك اتخذوا قرارهم بالانسحاب من مدينة عكا في ١٢-١٠-١١٨٩ م ليتم تجنيب المدينة الاعتداءات الصليبية وحتى يتمكنوا من تعزيز موقفهم العسكري في القدس والمدن الأخرى.

ثم اتخذت القيادة قراراً آخر عندما اشتد الحصار على مدينة عسقلان حيث رأت أنه لا بد من الانسحاب من المدينة وتخريبها حتى لا يرتكب الصليبيون المجازر فيها كما حصل في عكا وحتى لا يستفيد الصليبيون من التحصينات الموجودة فيها.

بالرغم من أن هذا الفرار «إخلاء المدينة وتخريبها» كان قراراً صعباً على المسلمين إلا أنه استطاع أن يعزز الوجود العسكري للمسلمين في القدس التي صمدت أمام الهجمة الصليبية.

ثانياً: جاء صلح الرملة الذي وقعه القائد صلاح الدين الأيوبي مع ريتشارد قلب الأسد تكريساً للواقع العسكري السائد، فقد تنازل المسلمون عن مدن الساحل الفلسطيني مقابل احتفاظهم بالقدس.

ولكننا نرفض أن نفهم هذا الصلح على أنه إقرار بالحق الشرعي للصليبيين في مدن الساحل الفلسطيني لأن هذا الصلح جاء نتيجة لحروب طويلة بين الطرفين، ولان طرفا الاتفاق اتفقا على تحديد مدة زمنية محددة لهذا الصلح «ثلاث سنوات وثمانية أشهر» فقد اعتقد الطرفان أن مدة الهدنة هذه كافية لتغيير موازين القوى وبالتالي يتم تغيير هذا الاتفاق وفقاً للموازين الجديدة.

ثالثاً: عقد الملك الكامل اتفاقاً مع الملك الصليبي فريدريك تنازل بموجبه عن القدس (التي كانت في يد المسلمين) ووافق على أن يقتصر الوجود الإسلامي في القدس على إقامة الشعائر الدينية من دون حمل السلاح.

إن هذه التنازلات التي قدمها الملك الكامل للصليبيين بالرغم من خطورتها إلا أنها كانت تعكس تكتيكاً سياسياً.

نستدل على ذلك من خلال اشتراطه على الصليبيين عدم إقامة أي تحصينات صليبية في القدس، وكذلك فإن الملك الكامل كان يشعر أن أمامه أعداء كثر آخرين غير صليبيي بيت المقدس، هناك صليبيوا إنطاكية وطرابلس لذلك اشترط على صليبيي بيت المقدس مساندته في محاربة أعدائه ولو كانوا من الفرنجة. كما اشترط عدم قيام مملكة بيت المقدس الصليبية تقديم المساندة والدعم لإنطاكية وطرابلس.

إن هذه الاتفاقية تعكس تعادلاً عسكرياً بين المسلمين والفرنجة، فقد استطاع الكامل تحييد مملكة بيت المقدس في أي صراع قادم مع الصليبيين الآخرين مقابل بعض التنازلات الجغرافية.

رابعاً: استغل الملك الظاهر بيبرس الخلافات الداخلية بين الإمارات الصليبية فعمل على تشتيت جبهة الأعداء من خلال اتفاقيات منفردة مع بعض الإمارات في نفس الوقت الذي كان يسعى فيه عسكرياً لمحاربة الإمارات الرافضة للصلح، ومن خلال قوته العسكرية استطاع أن يفرض شروطه على كافة الإمارات الصليبية إما فتحاً أو صلحاً.

أما الإمارات التي لم تستسلم له ولم يستطع السيطرة عليها عسكرياً «طرابلس وعكا» فقد أقرها على ما هي عليه تاركاً للأجيال القادمة متابعة التحرير.

خامساً: يتجلى بوضوح خلال فترة الحملات الصليبية دور موازين القوى العسكرية في فرض الشروط السياسية وذلك أن كلا الطرفين المتنازعين لم يكن يتمتع بقوة ساحقة تؤهله إنهاء الصراع لصالحه

فكلما امتلك المسلمون القوة العسكرية فرضوا شروطهم على الصليبيين وفتحوا الحصون والمدن فتحاً أو صلحاً. وما إن تصاب هذه القوة بالوهن والضعف حتى يرضخون لشروط أعدائهم.

ففي عام ١٢١٨ م قدم الملك الكامل عرضاً سياسياً يوافق فيه على تسليم القدس للصليبيين مقابل إجلاء الصليبيين عن شواطئ مصر.

وقد رفض الصليبيون ذلك نظراً لقوتهم العسكرية، وبعد أن جهز الكامل جيشه واسترد دمياط غير عرضه السياسي واكتفى بطرح الهدنة واعتبر أن أي إمدادات صليبية جديدة نقضاً للاتفاق.

و كذلك استطاع الملك الصالح امتصاص الهجوم الصليبي عام ١٢٤٩ م عندما كانت دولته تضم مصر والشام معاً. وكذلك الظاهر بيبرس الذي امتلك من القوة ما يؤهله لفرض كامل شروطه على أعدائه.

الفصل الخامس

ملاحق عامة

أولاً : نصوص من القرآن الكريم

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»

البقرة ١٩٠

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين»

البقرة ٢٠٨

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين✪ إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين»

آل عمران ١٣٩ – ١٤٠

«فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً✪ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً✪ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً✪ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردّوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً»

النساء ٨٨ – ٩١

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم آخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وانتم لا تظلمون✪ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله إنه هو السميع العليم»

الأنفال ٦٠–٦١

«إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير»

الأنفال ٧٢

«فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم»

محمد ٣٥

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل»

الممتحنة ١

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين✪ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»

الممتحنة ٨–٩

صدق الله العظيم

ثانياً : فتاوى

«فإذا رأى الحاكم أن من الخير للمسلمين أن لا يجابهوا أعداءهم بالحرب والقوة وتثبت من صلاحية آرائه بالتشاور فله أن يجنح إلى سلم معهم لا يصادم نصاً شرعياً ثابتاً ريثما يأتي الظرف المناسب والملائم للقتال والجهاد».

«لا يجوز تولي المسلمين لأهل الكتاب أو المشركين إلا في حالة واحدة صريحة، هي شدة ضعف المسلمين».

«يجوز الإستعانة بالكافر لقتال كافر إذا كان هذا الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين وهناك ضرورة للاستعانة به، على المذهب الشافعي».

«ذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لا ينبغي إلا إلى مدة معلومة، وأنه لا يجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت لأنها هي المدة التي صالح النبيﷺ قريشاً عليها عام الحديبية»[1].

---

(1) فقه السيرة.

ثالثاً: تراجم

١ـ محمد رسول الله ﷺ:

رسول الله، خاتم النبيين، ولد في عام الفيل بمكة المكرمة، بعثه الله ﷻ هدى للناس وكان عمره آنذاك أربعين سنة.

حمل رسالة الإسلام سراً وعلانية، تلقى أشد التعذيب من قريش وثقيف والمشركين.

هاجر إلى المدينة المنورة بأمر من الله ﷻ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة.

بلّغ رسالة الإسلام ووضع أسس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ثم في جزيرة العرب، انتقل إلى رحمة الله في العام الحادي عشر للهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة.

جزاه الله عنّا وعن أمة الإسلام خير الجزاء.

٢ـ أبو بكر الصديق

عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي، ولد عام ٥٠ ق.هـ الموافق ٥٧٣ م في مكة. رفض السجود للأصنام في الجاهلية ولم يشرب خمر نهائياً.

كان أول من أسلم بعد أم المؤمنين خديجة. هدى الله على يديه الكثير من الصحابة. رافق رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة، شارك في جميع المشاهد الإسلامية من بدر حتى فتح مكة. أول خليفة لرسول الله ﷺ، عمل على القضاء على المرتدين عن الإسلام وأعاد نشر دين الله في جزيرة العرب.

توفي في ١٣ هـ الموافق ٦٣٤ م.

٣ـ عمر بن الخطاب

ثاني الخلفاء الراشدين، ولد في مكة ٥٨٤ م الموافق لعام ٤٠ ق.هـ أسلم في العام الخامس للبعثة فكان بذلك المسلم الأربعين. هاجر إلى المدينة علناً وشارك في جميع المعارك الإسلامية منذ بدر حتى فتح مكة.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، تولى الخلافة بعد أبي بكر. فتح الله على يديه بلاد الشام والعراق ومصر.

استشهد في عام ٢٣ هـ الموافق ٦٤٤ م على يد المجوسي أبو لؤلؤة.

٤ـ عثمان بن عفان

ثالث الخلفاء الراشدين، ولد عام ٤٧ ق.هـ الموافق لعام ٥٧٧ م، وكان من المسلمين الأوائل حيث أسلم على يد أبي بكر الصديق، تزوج من ابنتي رسول الله ﷺ رقية ثم أم كلثوم لذلك لقبه رسول الله بذي النورين.

كان سخياً في إنفاقه في سبيل الله وعُرف أنه جهز جيش العسرة بألف بعير وسبعين فرساً وألف دينار. بشره رسول الله ﷺ بالجنة.

تولى الخلافة بعد استشهاد عمر بن الخطاب وتم في عهده جمع القرآن والقضاء على دولة الفرس المجوسية.

استشهد عام ٣٥ هـ الموافق ٦٥٦ م.

٥ـ علي بن أبي طالب

ابن عم رسول الله ﷺ وتربى في بيته، وكان أول الغلمان إسلاماً فقد أسلم وعمره عشر سنوات، شارك في جميع الغزوات من بدر حتى فتح مكة.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، تولى الخلافة بعد استشهاد عثمان سنة٣٥ للهجرة.

استشهد على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ للهجرة.

٦ـ العباس بن عبد المطلب

عم النبيﷺ، وجدُّ الخلفاء العباسيين، ولد في مكة عام ٥١ ق.هـ الموافق ٥٧٣ م، أسلم قبل الهجرة ولكنه كتم إسلامه حتى هاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة، شهد فتح مكة وموقعة حنين.

عمي في آخر حياته، توفي عام ٣٢ هـ الموافق ٦٥٣ م.

٧ـ أبو سفيان صخر بن حرب

ولد عام ٥٧ ق.هـ الموافق ٥٦٧ م. قاد جيش قريش لمحاربة المسلمين في أحد والخندق، أسلم يوم فتح مكة، وشهد حنين والطائف مع المسلمين حيث فُقِئَت عينه، شهد اليرموك وفيها فُقِئَت عينه الأخرى.

توفي عام ٣١ هـ الموافق ٦٥٢ م.

٨ـ أبو طالب بن عبد المطلب

عم رسول اللهﷺ، رباه صغيراً وكفله بعد وفاة جده عبد المطلب رفض إعلان إسلامه خوفاً من أن تعيره نساء قريش بذلك، غير أنه انتصر لابن أخيه ومنع قريش من إيذائه والتعرض له. مثّل المسلمين في مفاوضاتهم غير المباشرة مع قريش.

توفي قبل الهجرة ويعرف عام وفاته باسم عام الحزن وذلك لما أصاب النبيﷺ من الحزن.

٩ـ المغيرة بن شعبة الثقفي

صحابي من ثقيف، أسلم يوم الخندق وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام. اعتزل الفتنة أيام علي ومعاوية رضي الله عنهما، ولكنه حضر التحكيم، ولاه معاوية بن أبي سفيان ولاية الكوفة حتى توفي عام ٥٠ هـ.

١٠ـ عمرو بن العاص

ولد في ٥٠ ق.هـ الموافق ٥٧٣ م في مكة، أسلم في العام الثامن للهجرة مع خالد بن الوليد، استعمله رسول الله ﷺ على عُمان. شارك في فتح الشام وقاد جيوش الفتح إلى فلسطين ومصر. توفي عام ٤٣ هـ الموافق ٦٦٤ م، يعرف بلقبه داهية العرب.

١١ـ قتيبة بن مسلم الباهلي

أحد القادة العسكريين البارزين أيام الدولة الأموية. ولد عام ١٣ هـ، عينه الحجاج أميراً لخراسان مدة ١٣ سنة. فتح الله على يديه بلاد خوارزم وسمرقند وكاشغر.

قتل عام ٩٧ هـ وله من العمر أربع وثمانون سنة.

١٢ـ هارون الرشيد

هارون بن محمد بن عبد الله العباسي. ولد عام ١٤٥ هـ وتقلد الخلافة بعد أخيه المهدي، كان يحج عاماً ويغزو في سبيل الله عاماً، توفي عام ١٩٣ هـ الموافق ٨٠٨ م.

١٣ـ المعتصم محمد بن هارون الرشيد

ثامن خلفاء بني العباس، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون عام ٢١٨ هـ الموافق ٨٣٣ م، دمَّر حصون الروم في أنقرة وعمورية، بنى مدينة سامراء في العراق واتخذها عاصمة له.

توفي عام ٢٢٧ هـ الموافق ٨٤٢ م.

١٤ـ صلاح الدين الأيوبي

قائد عسكري إسلامي مؤسس الدولة الأيوبية عام ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧١ م، عمل على محاربة الصليبيين في الشام وفلسطين.

انتصر على الصليبيين في موقعة حطين ٥٨٣ هـ الموافق ١١٨٧ م وحرر القدس منهم.

توفي ٥٨٩ هـ الموافق ١١٩٣ م.

١٥ـ الملك نجم الدين الصالح

وهو ابن الملك الكامل، تولى السلطة بعد أخيه العادل الثاني، وعمل على توحيد الدولة الأيوبية من جديد لمواجهة الصليبيين.

حارب الصليبين في مصر وفلسطين، حرر بيت المقدس للمرة الأخيرة من الصليبيين.

توفي عام ٦٤٧ هـ الموافق ١٢٤٩ م.

١٦ـ الملك الظاهر بيبرس

ولد سنة ٦٢٠ هـ الموافق ١٢٢٣ م، وهو من المماليك الأتراك، أُسر وعمره ١٤ سنة وبيع في الشام إلى أن انتقلت ملكيته إلى الملك نجم الدين الصالح ٦٤٢ هـ الموافق ١٢٤٦ م. حارب ضد الصليبيين في المنصورة ٦٤٨ هـ، وقاد الجيوش لمحاربة المغول في عين جالوت مع الملك قطز.

تسلم السلطة عام ٦٥٨ هـ وقضى على الوجود الصليبي في معظم المدن الفلسطينية.

توفي عام ٦٧٦ هـ الموافق ١٢٧٧ م.

المراجع

١ـــ القرآن الكريم.

٢ـــ تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون.

٣ـــ فقه السيرة، فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

٤ـــ صدر الإسلام، د. صلاح المدني، دمشق١٩٦٢م.

٥ـــ العصر الراشدي والأموي، د. صلاح مدني، دمشق ١٩٦٢م.

٦ـــ الخلافة العباسية، العصر الأول، د. صلاح مدني دمشق ١٩٦٣م.

٧ـــ الخلافة العباسية، العصر الثاني، د. صلاح مدني دمشق ١٩٦٤م.

٨ـــ فلسطين أرض الحضارات، د. شوقي شعث.

٩ـــ تاريخ فلسطين القديم، ظفر الإسلام خان، دمشق ١٩٨١م.

١٠ـــ الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في فلسطين، مصطفى مراد الدباغ ١٩٨١م.

١١ـــ أطلس التاريخ العربي الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، دمشق ١٩٩٤م.

١٢ـــ أحكام النساء للإمام ابن الجوزي، تحقيق أحمد شوحان، دمشق ١٩٩١م.

١٣ـــ المبشرون بالجنة، أحمد شوحان، دمشق ١٩٩٠م.

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

مفاوضات الدولة الإسلامية

الفصل الرابع

المفاوضات مع الصليبيين

الفصل الخامس

ملاحق عامة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

المفاوضات في الإسلام كتاب جديد نقدمه إلى القارئ العربي حيث يطّلعُ القارئ من خلاله على وجهة نظر سياسية ببعض الجولات التفاوضية التي كانت تتم بين المسلمين وأعدائهم منذ فجر الاسلام وحتى انتهاء الغزو الصليبي للأرض العربية مروراً بصلح الحديبية أول وأهم صلح يتمّ في الإسلام.

هذه المفاوضات التي كانت دائماً انعكاساً لموازين القوى وكانت رهناً لعنصرين هامين هما عنصر القوة الذاتية والقيادة الحكيمة، ودار حطين تقدم هذا الكتاب للقارئ العربي مساهمة منها في إثراء المكتبة العربية بكتاب قيّم يستحق القراءة.

الناشر